محمد محمود
اللعين
ليليث للنشر والتوزيع

اللعين
محمد محمود
13953/ 2014 ط1
الترقيم الدولى /5– 79 – 5311 – 977 – 978
غلاف / محمد محمود
حقوق الطبع محفوظة لدى الناشر
ليليت للنشر والتوزيع
الإشراف العام / إيمان سعيد
رئيس لجنة قراءة د/ سالم ابراهيم سالم
مدقق لغوي أ/ أحمد عبد العظيم
المراسلات : 60 ش سكينة بنت الحسين
كفر عبده – الإسكندرية
ت : 01224272327
01022661632 :
Dar.lilitte@gmail.com
lilettepublishing@gmail.com

على غير العادة دخلت مكتبى فلم أجد فيه أحداً ..

إلا هو ..

رجلٌ وسيمٌ رشيق القد طويل القامة، ناعم الشعر أسوده، حليقٌ أنيقٌ، أبيض البشرة أسود الحُلَّة .. كان يجلس وإحدى ساقيه تعلو الأخرى ..

أعترف أن هيبةً ألقت بظلالها علىَّ بمجرد أن طالعت هيئته، ألقيت عليه السلام:

- السلام عليكم .

نهض من مجلسه مبتسماً واكتفى بالإيماء محيياً، فأشرت له بالجلوس:

- تحت أمرك ؟

جلس على المقعد المقابل للمكتب وقال فى جدية:

- أود أن أرفع قضية .

- على من ؟

- على الناس !

ضيَّقت عينى وسددت نظراتى إليه مستفهماً فاستطرد يقول:

- ظلمونى ظلماً بيِّناً، كلُّ ذنبٍ يقترفونه ينسبونه إلىَّ، كل قبيحٍ فى نفوسهم يلحقونه بى، كل كذبٍ أو ادعاءٍ أو خيانة، كل سبٍّ أو شجارٍ أو إهانة، كل جريمة قتل أو حادثة اغتصابٍ أو وقعة زنا، كل القضايا أنا دوماً المتهم الأول فيها ..

كل هذا وأنا أنظر إليه ولا أحرِّك ساكناً، أكتفى بأن أفتح عينىَّ وفمى على اتساعهما، ذلك الاتساع الذى بلغ مداه حين أجابنى على قولى:

- لم أتشرف بمعرفة حضرتك بعد ..

- إبليس !

- من ؟

- نعم .. أنا إبليس .

- هل أنت مختل عقلياً ؟!

– هل تريد إضاعة وقتك فى إثبات ذلك ؟

– للأسف .. وقتى لا يسمح، اعذرنى، يمكنك عرض قضيتك على محامٍ آخر .. سأدلك على محامٍ ..

توقفت الكلمات فى حلقى وأنا أراه يختفى عن ناظرى دون سابق إنذار، وقبل أن أنبس ببنت شفةٍ كان خلفى تماماً، ثم اختفى مجدداً ليعاود الظهور هذه المرة أمام المرآة التى لم تظهر صورته، ثم اخترق الباب المغلق خارجاً من الغرفة ليعود إليها عن طريق الجدار المقابل ..

ارتمى جسدى على المقعد بعد أن انفصل تماماً عن عقلى، لم أعد أعى أو أدرك شيئاً مما يجرى حولى، وكأنه حلمٌ .. بل كابوسٌ لا أستطيع الإفاقة منه ..

وبينما جسدى غارقٌ فى المقعد وعقلى غارقٌ فى ذهولٍ منقطع النظير إذا به يجلس أمامى وهو يعدِّل وضع رابطة عنقه:

– هذا إثباتٌ سريع؛ حتى لا أهدر وقتك الثمين !

- ولكن ..

- أعرف أعرف .. شكلى ليس كما تراه فى الأفـــلام، ثانية واحدة ..

وفى لمح البصر تحوَّل إلى كائنٍ عارٍ أحمر اللون، له ذيـــلٌ وقرون وفى يده سهم ثلاثى الرءوس، والنار تخرج من فمه ..

لم أدرِ إلا وهو يحاول إفاقتى بعدما عاد لصورته التى رأيته بها أول ما رأيته ..

- هههههه لماذا خفت إلى هذا الحد .. هـــذه ليـــست صورتى الحقيقية، إنما هو تلفيقٌ من بنى آدم، دوماً أكون فى أفلامهم ورواياتهم بقرونٍ وذيل، يظنون أنى مادمت مخلوقـــاً من النار فأنا شعلة .. لهب يمشى على قدمين، وينسون أنهم مخلوقون من طين، فهل إذا غرست فى أجـــسادهم بـــذرة ستنبت .. يمكنك إضافتها لملف القضية، فهذه الهيئة الملفقـــة تشوه صورتى وتحط من قدرى ولا تتناســـب أبـــداً مـــع وجاهتى الاجتماعية ..

صمت قليلاً ونظر إلىَّ وأظهر الشفقة على حالى ..

– أعلم ما يدور بنفسك الآن .. لكن تماسك .. واطمئن أنا لست هنا لأضرك .. إنما أنا بحاجة إليك .

جاهدت الكلمات وكأنى أحاول إخراجها من حلقى بيدى، وبعد محاولات عدة قلت بصوتٍ متهدَّج:

– أأ أنا.. وو .. ولماذا أنا بالذات ؟

– ليست هذه قضيتنا .. هل تسمح لى أن أدخل فى صلب الموضوع مباشرةً ؟

– هل رآك أحدٌ من قبل ؟

– قلت قبلاً إن وقتك ثمين، وأراك تضيعه !

– الشيطان بنفسه ينصحنى بالحفاظ على الوقت !

– ألم أخبرك أنى مظلوم .

– وماذا تريد منى بالتحديد ؟

– أولاً .. أن تقتنع .

– بمَ ؟

– بأنى مظلومٌ وحقى مهضومٌ وأنى أستحق غير ما أحصل عليه .

– ماذا تقصد ؟

– أن يعترف الناس أنى إله !

قاطعته فى ذهولٍ:

– ماذا تقول ؟

لم يبدُ أنه سمعنى، أو ربما لم يأبه لكلامى، وراح يستطرد قائلاً:

– أو قل نصف إله، يكون الله إله الخير وأنا إله الشر، هو إله العالم العلوى وأنا إله العالم السفلى .. أعتقد أن هذا أبسط حقوقى ..

– أنت حتماً تُخَرِّف !

– لماذا .. أليس الله طيباً لا يقبل إلا طيباً ؟

أليس الله جميلاً يحب الجمال؟

أليس الله محبة ورحمة وشفاء وسلام وسعادة ؟

فلأكن أنا السوء والقبح والكراهية والقسوة والمرض والحرب والكآبة ..

ألستم من ينسب إلىَّ الشر بكل صنوفه ؟

أنتم تؤمنون أنى إله الشر، وكل ذنبٍ تلحقونه بى دليلٌ عمليٌّ فعليٌّ على ذلك ..

– الآن أنت تعترف على نفسك بكل هذه التهم .

– لو كنتَ قاضياً .. بمَ كنت ستقضى ؟

– بأنك المحرض على كل تلك الجرائم .

– هذا اعترافٌ منك بأن ما تسمونها ذنوباً هى من فعلى، وأنا خالقها .. وأنى إلهها !

– أنت لست سوى مدَّعٍ .. إن كنت أنت خالقها فاقضِ عليها لتثبت ذلك، ثم أعدها إن شئت أيها الإله المزعوم ..

كل شيءٍ على وجه الأرض خلقه الله .. أنت نفسك خلقك الله وأمهلك إلى يومٍ معلوم .. ألا تذكر يوم وقفت

أمام الله ذليلاً ترجوه الإمهال .. ثم الآن تطالب بالمساواة به.. تريد أن تُسمَّى إلهاً وتتقاسم معه الألوهية والربوبية ؟؟

أنت فقط مجرد محرِّض .. كله ما تستطيعه هو الوسوسة والحديث الخفى ودفع الناس للذنوب بتزيينها ..

– تقول إن الله هو من خلق هذه الشرور ..

وهل يليق بك وأنت العبد المتأدب مع ربه أن تلحق به الشر فتجعله خالقاً للكراهية والألم والقبح والمرض والظلم والسوء ؟

– إن الحرب والكراهية والظلم لم يسمح الله بها إلا ليختبرنا ونحن نجرِّب تلك الحرية التى منحها لنا، وأية تجربة تحتمل الصواب أوالخطأ، وقد وعدنا بالعفو عن الخطأ إن اعترفنا به وندمنا عليه ..

الله لم يأمر بالحرب والكراهية والظلم، ولا يستمتع بإصابة عباده بالمرض ولا الألم، وإنما خلقها لحكمة، فالمرض

إذا أصابنا اكتسبنا مناعة، والألم إذا أصابنا اكتسبنا القوة والتحمل والجَلَد ..

كما يمكنك اعتبارها عينات من عذاب أكبر، نتذوَّق هذه العينات لنحذر العذاب الكبير، ولنخشى الله أكثر، ولنتعلم أن الدنيا ليست مقراً ولا مستقراً، ليست دار نعيمٍ دائم، وكأنها تنبيهٌ للغافل؛ فهى بذلك عين الرحمة ..

- رحمة ؟ هل تسمى العذاب رحمة ؟

أية رحمة تلك فى أن يكون عقاب الذنب الصغير فى الدنيا الزائلة عقاباً لا نهائياً فى نارٍ أبدية ؟

هذه هى القسوة عينها ..

- بالعكس .. الأب حينما يعاقب ابنه فهو يحبه، والمعلم حينما يعاقب تلميذه فهو يوجهه، ولو أهملوا عقابهم لاتهمناهم فى حبهم ونعتناهم بالتقصير فى حق هذا الابن وذلك التلميذ ..

أترى إن كان التلميذ لا يذاكر ورسب فى الامتحان، هل تنعت المعلم بالقسوة لأنه نبَّه هذا التلميذ الغافل لعله يعـــدِّل من سلوكه ؟

أكنت تطالبه بأن يعدَّه من الناجحين ؟

أما عذاب الآخرة، فهو ليس قسوة كما تدَّعى ..

الله يحاسبنا يوم القيامة على ما نقدِّم من عمـــل، وهـــو مطَّلعٌ على النفوس، ويعلم ما فيها، ويعلم أنه إذا مـــدَّ لهـــا العمر ستبقى على هذه الحال، فلو امتدَّ بك هذا العالم الزائل لبقيت على ما فى نفسك من خيرٍ أبدى لتستحق نعيماً أبدياً، أو تبقى على شرِّك الأبدى لتستحق جحيماً أبدياً ..

وأنت خير دليلٍ على ذلك، فقد أمهلـــك الله ومنحـــك الأبدية، فهل تراجعت عن شرَّك وهل تغيَّـــرت نفـــسك .. أبداً، ولن يحدث، لأن الشر فيك أبدىٌّ أزلىّ، لذا تـــستحق عذاباً أبدياً أزلياً ..

– مادام الأمر كذلك وكل شيءٍ من الله جميل، حتى العذاب والشرور والبغض والظلم والألم تسموها رحمة، فلماذا تلك الازدواجية حينما تعتبروها تهماً وجرائم لا تغتفر وتلصقوها بى ؟

لماذا لم تعد رحمة، لماذا لا تقولون إنى أرحمكم بتلك الأشياء ؟

– الله حينما سمح بهذه الأشياء إنما أراد اختبارنا بها، وأمرنا بعكسها ليقيس مدى تفهمنا لفكرة الحرية التى أنعم علينا بها، فالله حين يسمح للألم أن يصيبنا فإنما هو يذكِّرنا به ويلجئنا إليه ويعيدنا إلى طريقه ..

أما أنت فتغوينا بهذا الأشياء لتبعدنا عنه وتضلنا عن طريقه، وشتَّان الفارق .. أنت توردنا مورد هلاكٍ، بينما الله يضع لنا المساعدات على طريق الحرية الذى رسمه لنا، حتى نفيق إذا غفلنا ونعود إليه .

- سمعتك تتكلم عن حرية .. ألازلت تصدق تلك الأكذوبة القديمة وذلك الوهم الكبير ؟

أنت لست سوى دمية كتلك التى فى مسرح العرائس ..

أنت مجبورٌ مقهورٌ لا إرادة لك ولا اختيار بيدك ..

أليست كل أعمالك مكتوبة فى كتاب؟

أليس الله يعلم كل شىء ؟

أليس خالق كل شىء، ويعلم ما توسوس به النفس ؟

أم تدَّعى أنك تستطيع أن تغير ما فى علم الله ؟

إن كان قد كتبك فى أهل النار فأنت فى أهل النار لا محالة، لا ينفعك عملٌ ولا أمل ..

- لم يكن الإنسان يوماً مقهوراً ولا مجبوراً، كلُّ فعلٍ يُقدم عليه الإنسان يكون بكامل إرادته، وكل عملٍ يعمله يكون بقرارٍ ذاتىٍّ سيادىٍّ منه، ويكون هو صاحب الفاعلية المطلقة فيه، لا أحد يتدخل فى قرارت الإنسان ولا اختياراته الحرة التى يحاسبه الله عليها .

– وماذا تقول فى القدر ؟

– القدر ليس قدرة .. إنما تقدير، الله يعرف ما نفعل من قبل أن نفعل، ولا يقهرنا عليه، مثل الأب إذا خرج ابنه طالبه بالعودة مبكراً، وهو يعلم تمام العلم هل سيعود مبكراً أم لا، والصديق الذى ينتظر صديقه ويعلم إن كان سيتأخر أم سيأتى فى موعده، والزوجة التى تطهو طعاماً لزوجها وتعلم تعليقه من قبل أن يقوله، أو كالمعلم الذى يضع اختباراً ويعرف من سيجتازه ومن سيخفق فيه ..

هو لم يقهر أحداً على فعله، لكنه بحكم خبرته بهم أدرك التوالى بإدراكه للمعطيات ..

قام من مقعده ودار حوله وهو يفرك يديه، ثم قال فى خبثٍ:

– تقول إن المعطيات معروفة والتوالى معلومة وكله مثبتٌ عنده فى كتاب ..

فإذا كانت الأشياء معروفة ومحددة مسبقاً .. فما الجدوى من الدعاء ؟

ما فائدة التضرع والابتهال والبكاء فى أمورٍ مكتوبةٍ مقضية لا يمكن تغييرها ؟

– الدعاء يرد القضاء ويغيره، ومنه قصة المرأة التى ذهبت لسيدنا موسى ليدعو الله أن يرزقها الولد، فيقول الله له: إنى قد كتبتها عقيم، فتأتيه مرة ثانية، فيقول الله له: إنى قد كتبتها عقيم، حتى رآها سيدنا موسى بعدها وهى تحمل طفلاً، فسأل الله فأخبره أنه كلما كتبها عقيم قالت يارحيم، فسبقت رحمته قدرته .

– هذا يعنى أن ما كتبه الله عنده قابل للتغيير والتعديل، وهذا يناقض قولكم بعلمه اللامتناهى ..

– ما كُتب فى اللوح المحفوظ لا يتغير ولا يتبدَّل وهو الثابت فى علم الله، إنما يتبدَّل ما فى صحف الملائكة ليوافق ما فى اللوح المحفوظ ..

كعبدٍ نزلت الملائكة إليه بقضاءٍ ما .. حادثةٍ مثلاً، فلما دعا الله غيَّر ما فى صحف الملائكة .. فيكون المكتوب فى اللوح المحفوظ أن حادثةً كانت ستصيبه لولا أنه دعا الله فأنجاه منها .. فبذلك يكون قدره فى صحف الملائكة قد تغير ووافق المثبت فى أم الكتاب ..

- أنت تقول إن الله يعلم ولا يجبر، وكل شىءٍ من اختيارك أنت، فقل لى .. هل اخترت أبويك؟

هل اخترت الزمان الذى تولد فيه؟

هل اخترت شكلك أو لونك أو جنسيتك؟

هل لك يدٌ فى لون عينيك أو طول قامتك ؟

لا تكذب على نفسك .. لقد خُلقت فى عالمٍ لا اختيار لك فيه البتة .. اعترف .. أنت مُسيَّر .

- كفاك تدليساً، أنت تتحدث عن أشياء لا حساب فيها، الله لن يدخلنى النار يوم القيامة لأنى كنت قصيراً، ولن يدخلنى الجنة من أجل سواد عيونى، لن يسألنى الله لماذا كان

فلانٌ أباك، أو لماذا أنت أبيض البشرة، بل سيسألنى عن أعمالى وأفعالى التى هى عين اختيارى ومن صنع يدى ..

– ولماذا يسألك وهو العالم ؟

– إنه لن يسألنى مستفهماً، بل يسأل مؤنباً، منتزعاً اعترافاً بالذنب، كأن يرى الأب ابنه يضرب أخاه، فيسأله: هل ضربت أخاك؟ ألم أنهك عن ذلك؟ ألا تعرف أن هذا تصرفٌ خاطئ؟ وهو فى كل هذا لا ينتظر جواباً؛ لأنه بالأصل يعلمه، لكنه ينتظر اعترافاً بالذنب وندماً عليه، ثم اعترافاً بعد توقيع العقاب بالعدالة والاستحقاق .

يتجه نحو النافذة ويسدد نظراته إلى الشارع، ويشير إشارات عشوائية إلى المارة ويقول بطريقة درامية مفتعلة:

– عدالة؟ وهل فى الحياة ذرة عدالة؟

طفلٌ يولد على فراشٍ وثيرٍ من ريش النعام وفى فمه ملعقةٌ ذهبية، يتنعَّم فى صنوف الحلوى والأطعمة الشهية .. إن اشتهى نال، وإن رغب أدرك .. وطفلٌ مسكينٌ يولد من

رحم الفقر، لا يجد ما يسد رمقه ولا ما يغطى جسده ويستر عورته .. وآخر يولد بأمراضٍ لا تنتهى، يقضى عمره بين المستشفيات، والحسرة فى قلبه أقوى من المرض فى جسده حينما يرى غيره يتمتع بالصحة والعافية ..

عن أى عدلٍ تتحدث ؟

- أولاً دعنا نتفق أن الحياة دار فناء، وليست مقر بقاء، خُلقنا فيها فى بيئات مختلفة وظروف متباينة اختباراً، فالغنى الصحيح ليس مفضَّلاً عند الله، والفقير المريض لا يبغضه الله، إنما الله يختبر شكر الأول وصبر الثانى، يرى كيف يتصرفان فى الحيثيات التى وُضعت لهما، وكيف يتعاملان مع الظروف التى وُجدا فيها .. كما أن بعض النفوس صلاحها الفقر، والمال يفسدها، بينما لا يصلح لنفوسٍ أخرى سوى الغنى .. كما أن الرزق لا يقتصر على المال فقط، ولكل إنسانٍ نصيبٌ كاملٌ من الرزق يتساوى به مع غيره، لكن الاختلاف فى التقسيم؛ فمنهم من زاد نصيبه فى العلم على

حساب المال، ومنهم من زاد نصيبه فى الصحة وحُرِم العيال، فما تم لأحدٍ عطاء، ولا تم لأحدٍ حرمان، فتمام العطاء والحرمان مؤجلٌ ليوم الفصل والعدل .

– وهل من العدالة أن يفرِّق الله بين أنبيائه المختارين؛ فيصيب أيوب بالأمراض والعلل، ويغدق على سليمان من الهبات والعطايا ويُمَلِّكه الدنيا ؟

هل من العدل أن يموت جندىٌّ صغيرٌ شهيداً ويُحرم القائد هذه الميتة، فيموت خالد بن الوليد على فراشه ؟

هل من العدالة أن يكون أغنى الأغنياء كافراً به، بينما يكون أنصاره ومتبعيه هم أفقر خلقه ؟

أين العدالة فى ذلك ؟

– وهل صرت وصيًّا على الله تجادله فيما يصنع ويفعل، وهو أعلم أين يضع رزقه، وما يصلح عباده، ألم أخبرك أن الله يبتلى عباده اختباراً وامتحاناً، وكذلك الأنبياء .. فهم بشرٌ كغيرهم، يجرى عليهم ما يجرى على البشر، ابتلاهم الله

ليكونوا مثالاً لغيرهم يحتذونه إذا قابلوا نفس الابتلاء وعاينوا عين الاختبار، إذن فكلها اختبارات لا تفضيل فيها لأحدٍ على الآخر ..

وأى شخصٍ إذا أراد اشتراء هدية لأصحابه لا يشترى لهم جميعاً الهدية عينها، وإنما بعلمه بشخصية كل صاحب واحتياجاته ينتقى لهم الهدية المناسبة لظروفهم واحتياجاتهم، وما يصلح لهم ويصلحهم ..

أما قولك فى استحقاق القائد للشهادة دون الجندى الصغير فهذه محاباة لا يعرفها الله .. ليس لمجرد كونه قائداً فهو يستحق الشهادة أكثر من غيره .. لعل الله نظر فى قلوبهم ورأى هذا الجندى الصغير الذى لا يعجبك أكثر إخلاصاً من قائده، وأكثر إيماناً بقضيته وبالتالى أصبح أكثر استحقاقاً للشهادة ..

وفى حالة خالد بن الوليد حكمة بالغة .. خالد هو سيف الله المسلول، ولا يجوز لسيف الله أن يكسره مشرك، بل

يغمده الله بنفسه، لذلك كان موته على فراشه هو ما يناسبه..

وإن كنت تقصد أجر الشهيد فالله بإمكانه أن يمنحه أجر الشهيد وإن مات على فراشه إن اطَّلع على قلبه ووجده يستحق هذا الأجر ..

أما استنكارك أن يكون الكفار وغير المسلمين أغنى من المسلمين فهذا أكبر دليل على عدالة الله الذى لا يحابى عباده، ولا يجامل المتدينين، إنما يعطى كلاً حسب عمله .. من جد وجد، ومن زرع حصد، أما الدين فحصاده يوم القيامة، فثمرة الجد النجاح، وثمرة الدين الفلاح، ولا خلط بين هذا وذاك ..

وبالأصل .. الله لم يأمرنا بالمكوث فى المساجد ليل نهار دون سعى للرزق وعمارة الأرض وتغيير الكون ..

نظر إلىَّ نظرة احتقارٍ وامتهانٍ وقال بنبرةٍ ساخرة:

- تغيير الكون ؟!

وهل تظن أنك أنت الضعيف المسكين البائس تستطيع تغيير الكون ؟

يالك من واهم !

– وهل غيَّر العالم من قبل غير ضعفاء مساكين بائسين أمثالى؟

وهل كان ابن سينا أو ابن خلدون أو نيوتن أو جاليليو أو أديسون أو نوبل أو زويل إلا مثلى؟

نحن خُلِقنا بالأصل لتغيير العالم، وقد منحنا الله القدرة على ذلك، كل ما علينا هو اكتشاف تلك القدرات الكامنة فينا والتى من خلالها نقدِّم للعالم ما يغيِّره ..

أليس من اخترع المصباح والهاتف والساعة والحاسب والقطار والسيارة والطائرة والصاروخ بشراً؟ ألم يغيروا العالم بما قدموه له ؟

– وهل نسيت من اخترع الديناميت والبارود والبنادق والقنبلة الذرية والنووية والهيدروجينية ؟

- أراك تتبرأ من أنصارك!

أولاً ليسوا جميعاً دعاة فسادٍ، فبعضهم اختـــرع هـــذه الأشياء لخدمة البشرية؛ مثل نوبل الذى اخترع الـــديناميت كان يهدف باختراعه إلى إراحة العمَّال فى المنـــاجم، ومـــن اخترع الأسلحة كان يهدف إلى حماية نفـــسه أولاً، لكـــن بعض النفوس الضعيفة التى نجحت أنت فى التـــسلل إليهـــا استعملت هذه الأشياء فى الاعتداء على الآخرين، وهذا من فساد قلوبهم، وهو ثمرة ما زرعته يداك فى نفوسهم الخبيثـــة التى امتلأت ناراً فأصبحوا شياطين مثلك ..

أثارت هذه الجملة الأخيرة حفيظته وبدا الغضب والغيظ فى كل ملمحٍ من ملامحه وهو يقول:

- مثلى؟! اسحبها من فضلك .. لا أحد مثلى .. أنـــا أفضل من بنى آدم جميعاً، لا تحط من قدرى وتشبههم بى ..

- ألازلت على كبرك الأزلى الأبدى؟

ألازلت تصدِّق أنك أفضل من آدم وبنيه؟

ألازلت غارقاً فى ضلالك القديم ومصرًّا عليه؟

– إنها الحقيقة .. أنا أفضل من بنى آدم، أنا مخلوقٌ من نار.. وهم مخلوقات طينية .

– إذا افترضنا جدلاً أن النار أفضل من الطين .. فهل يستلزم شرف الأصل شرف الفرع؟

وهل تقتضى أفضلية النار –المزعومة– على الطين أن يكون المخلوق من النار أفضل من المخلوق من الطين؟!

ثم من جزم أن النار أفضل من الطين؟!

ألقِ بذرة فى الطين ثم انظر ماذا تنتج؛ شجراً وثمراً وزهراً، صنوفاً من الأطعمة الشهية وأنواعاً من الروائح الذكية، فضلاً عن المنظر الرائع البديع، ونفس البذرة ألقها فى النار تحترق وتتحوَّل رماداً ..كذلك الحرية والإرادة والقدرة، زرعها الله فى المخلوقات الطينية التى لا تعجبك فأنتجت، وزرعها فيك فأحرقتها بكبرك وتعاليك، وكذلك كل من اتبعك؛ إذ إن نفوسهم نارية مثلك ..

– هذا أكبر دليلٍ على ظلم الله .. مجرد اختلافٍ واحـــدٍ فى الرأى وزلَّة لحظة .. تكون نتيجتها الخلـــود فى العـــذاب الأبدى !!

– اختلافُ رأى؟!

الله لا يعطى أراء تُناقش، الله يُصدر أحكاماً تُنَفَّذ، ومـــا اقترفته أنت ليس اختلافاً فى الرأى، بل ذنباً كبيراً ..

ولو افترضنا أنه ذنبٌ واحدٌ وأنـــك خالفـــت الله مـــرة واحدة، ورفضت السجود لآدم .. فهـــل تراجعـــت عنـــه وندمت عليه .. أبداً لقد كنت ولازلت مصرًّا على ذنبـــك ثابتاً عليه ..

وانظر إلى غريمك، ألم يخالف آدم أمر ربـــه –بتـــسويلٍ منك– وأكل من الشجرة التى نهاه ربه عنها، وعوقب نفس عقابك؛ أخرجه الله من الجنة كما أخرجك، لكنه ندم وتاب واستغفر، فكانت عاقبة ندمه توبة الله عليه وعودته بإذن الله إلى الجنة خالداً منعماً يوم الحساب، بينما أنت أذنبـــت أولاً

بالكبر ثم بالإصرار عليه، والإصرار على الصغيرة كبيرة، وبدلاً من أن تطلب العفو طلبت الإمهال لغرضٍ دنيءٍ حقير، فأمهلك الله .. وها أنت تستمر فى ضلالك محاولاً إغواء أكبر عدد ممكن من أبناء غريمك الأول قرناً بعد قرن ..

لم يكن أبداً ذنباً واحداً ولا زلَّة لحظة، فقد اخترت الأبدية فى نفس الطريق وعلى نفس النحو، ولم تفكر للحظة فى التوبة والندم والرجوع إلى طريق الحق .

هزَّ رأسه هزةً تنم عن التهكم الذى بدا فى صوته:

– وهل تظن أن ربك سيغير موقفه منى إن ندمت وأعلنت التوبة واعترفت بالخطأ وقدَّمت كل فروض الولاء والطاعة ؟

إنه لا يُقرُّ إلا ما يريد .. ولا يقبل إلا ما يعجبه ..

ألا تذكر حين آمن فرعون وهو يغرق ؟

رفض الله إيمانه رغم إنه يعلن دوماً أن باب التوبة مفتوحٌ أمام الجميع ..

– باب التوبة بالفعل مفتوحٌ أمام الجميع، ولكن التوبة لها شروط، وأهم تلك الشروط هو شرط الوقت، التوبة تُقْبَـــل فى كل الأوقات إلا عند معاينة الغيبيات؛ لا توبة عند الموت، ولا عند شروق الشمس من مغربها ..

يعيث الإنسان فى الدنيا فساداً، لا يعبأ بأمرٍ ولا نهى، ولا يشغله حرامٌ ولا حلال، يقترف ما شـــاء مـــن المعاصـــى، ويرتكب ما طالت يده من الموبقات، ثم إذا جـــاءه الأجـــل وفارقه الأمل ونُزعت منه القدرة أظهر الطاعة والخضوع ..

أى عدلٍ هذا حينما يقبله الله ويساويه بمن اعترف بذنبه وتاب عنه وهو يملك القدرة على اقترافه ويستطيع الاستمرار فيه، كهذا الطالب الذى أضاع الأيام فى اللـــهو واللعـــب والعبث، ولا يفتح كتاباً ولا يعرف جواباً، حتى إذا دخـــل لجنة الامتحان بكى وطلب السماح له بالعودة للمذاكرة .. هذا ندمٌ وقت لا ينفع الندم، وتوبة بعد أن أغلق باب التوبة ورحل قطار العفو .

وضع ساقاً على ساقٍ وابتسم فى خبثٍ وهو يقول:

– إن سلَّمنا أن الله أغرق فرعون لأنه مذنبٌ مجرمٌ يستحق ما آل إليه، فما بال ضحايا طوفان نوح ؟

ما ذنب الأطفال الصغار الذين لم يجرِ عليهم تكليف ؟

– وهل صرت محامياً عن هؤلاء الضحايا الأبرياء ؟!

ثم إنك تعرف جيداً كذب ما تقول؛ فالله قد أعقم أرحام النساء من قوم نوح قبل الطوفان بأربعين عاماً، وعليه فيكون أصغر من غرق فى الطوفان قد بلغ أربعين سنة؛ أى صار بالغاً عاقلاً واعياً يجرى عليه التكليف ..

– ما هذه الرحمة التى لا حد لها .. أعقم أرحام النساء قبل الطوفان ..

وهل أعقمها قبل الزلازل والبراكين والعواصف والأعاصير ؟

كم من كارثةٍ طبيعية تقع ويكون ضحاياها رجالاً ونساءً وأطفلاً وشيوخاً ؟

– وأين القسوة أو الظلم فى هذا، فكل إنسانٍ مآلــه إلى الموت عاجلاً أو آجلاً، علــى فراشــه أو فى حــربٍ أو فى عاصفة أو طوفان أو بركان، يُقضى أجله على أى نحــوٍ ثم يُحاسب كلٌّ على قدر عمله، وفى هذا رحمة؛ فمن لم يجــرِ عليهم التكليف منهم فهم الولدان المخلدون فى الجنة، ومــن بلغ حد التكليف يُحاسب كمن مات على فراشه ..

بل إن بعض هذه الميتات تُعدُّ شهادة، فتكون رحمــة الله الواسعة قد شملتهم وأجرٌ عظيمٌ منه قد عمَّهم، وربما كــان عذابهم الأخير قبل لفظ أنفاسهم الأخيرة كفارة لهم، أرأيت كم وجهاً للرحمة هنا؟

ثم إن البراكين والزلازل وغيرها ليست مصائب كمــا تحاول أن تصورها .. فهى أشياء عارضة بالأصل لا تتجاوز الثوانى القليلة فى عمر البشرية المقدَّر بملايين السنين ..

ثم إن البراكين مثلاً تخرج ما فى باطن الأرض من معادن وثروات مخبوءة .. بالإضافة إلى دور الطبقــة البركانيــة فى

خصوبة التربة .. والزلازل تنفِّس عن الضغط المكبوت تحت القشرة الأرضية فتحميها من الانفجار .. وتعيد تثبيت الجبال فى أماكنها كأحزمة مثبتة للأرض ..

فليست الأمور على هذا النحو من السوء كما تصوره .. وليس ما يصيب الإنسان من سوءٍ إلا وللخير فيه نصيب .. وانظر إلى قصة الخضر مع موسى .. فقد قتل غلاماً وذلك مصيبة بالنسبة لأهله .. ولكن ما وقع فى علم الله أن هذا الولد فاسد وسيتعب أبويه .. فأراد الله أن يبدلهما خيراً منه.. وكذلك ما أجرى فى السفينة من خرقٍ يبدو فى ظاهره فساداً .. لكن الحقيقة أنه بذلك يحفظ عليهم سفينتهم إذ يعيبها حتى لا تؤخذ منهم .. فالمصائب والكوارث التى نراها كذلك بأعيننا القاصرة محدودة الرؤية ليست سوى خيرٍ مستتر لا يعلمه إلا من عنده العلم اللدنى الكلى .. وله القدرة المحيطة بكل خلقه .. ويعلم ما يصلح لهم ويناسبهم فيسوقه إليهم بعلمه وقدرته ..

ثم إن من مات على فراشه أو مات فى حادثة أو كارثة سيحاسب –مادام مكلَّفاً– حسب عمله؛ فإن كان خيراً دخل الجنة وإن كان شرًّا دخل النار ..

– وماذا عن الأخوين اللذين تعبَّد أحدهما فى محرابه ستين سنة، ولما عصى الله يوماً واحداً ومات على معصيته دخل النار خالداً فيها .. بينما عصى أخوه ستين عاماً واستباح فيها صنوف الذنوب ولما تعبَّد يوماً واحداً ومات على حاله دخل الجنة ..

كيف بمعصية يومٍ واحدٍ بعد عبادة عمرٍ كاملٍ تخلد بصاحبها فى عذابٍ مقيم ؟

ألا يوجد تقدير لستين سنة من العبادة والزهد والتصوُّف؟

وكيف بعبادة يومٍ واحدٍ بعد ستين سنة من الذنوب والمعاصى تعدل خلداً فى نعيمٍ مقيم ؟

– أتحب أن أفاجئك .. أول من تُسَعَّر بهم النار: مقاتل شهيد، وعالم علَّم الناس القرآن، ورجلٌ غنيٌّ تصدَّق بماله .. هؤلاء افتقروا لأهم شرطٍ لقبول الأعمال، وهو النية ..

يبعث الله الناس يوم القيامة على نيَّاتهم، فمن لم تَخْلُص نيته لله لم يقبل الله عمله، فهذا الذى عبد الله ستين سنة لم يكن قلبه مطمئناً بالإيمان، لكنه كان مثلك .. يعبد ليقال عابد، وتترقى درجته ويعلو فى العيون، أما نفسه فنارية شريرة، والدليل على ذلك أن عبادة ستين عاماً لم تنفعه حينما تهيَّأت له ظروف المعصية، والله يعلم أن أمثال هذا لو امتد بهم العمر إلى الأبد لبقوا على حالهم لا يتوبون .. تماماً مثلك ..

أما الآخر فقد كان يتقلَّب فى صنوف المعاصى، لكن بمجرد أن رأى قلبه شعاعاً من هداية الله حتى تمرَّد على ماضيه وتاريخه وذنوبه ومعاصيه وخلع جلده وفتح قلبه لشعاع الله، فأشرق فى حناياه بعدما أدرك حقيقة الدنيا،

وأدرك أنه أضاع الماضى بغفلته، فلم يشأ أن يهدر المستقبل، والله يعفو ويغفر ويتوب على من يسأله التوبة مادامت شروطها متوافرة ..

– تقول إن الله أرسل له شعاعاً من الهداية فمس قلبه فآمن!

ماهذه الشاعرية ؟!

لقد أوقعت نفسك فى مأزقٍ كبير .. معنى كلامك أن الله يرسل لبعض الناس ويغفل بعضهم، فما ذنب من لم يرسل الله إليه رسولاً ؟

ما ذنب الناس فى أول الزمان وفى فجر التاريخ وفى عصر الديناصورات ؟

ما ذنب هؤلاء الذين عاشوا قبل زمان الأنبياء ؟

ما ذنب هؤلاء الذين يعيشون فى مجاهل أفريقيا وفى غابات الأمازون وفى بلاد واء الواء ؟!

ابتسمت ابتسامة استخفافٍ بما قال وأومأت برأسى قائلاً:

– أعترف أنك تمتلك قدرة كبيرة على السفسطة وحشو الأكاذيب الكثيرة فى الجملة الواحدة وكأنها تعضد بعضها لتبدو فى النهاية حقيقة واضحة .. لكنك لا تتقن الكذب بقدر ما يتقن أنصارك ومريدوك التصديق والتسليم .. تكيد وتكيد ويبقى كيدك ضعيفاً واهياً ..

حتى حينما كدت لآدم وصوَّرت له أنه إن أكل من الشجرة المحرمة يغدو ملاكاً أو يصبح من الخالدين، فى حين أنه لو فكَّر قليلاً لتذكر أن الملائكة نفسها سجدت له .. فما حاجته فى أن يصير ملاكاً، أما بشأن الخلد .. فإن كانت الشجرة تخلد من يأكل من ثمرها، فلماذا لم تأكل أنت منها وتكفى نفسك عناء التذلل لله بأن يبقيك حيًّا إلى يوم الوقت المعلوم ؟

لو كان آدم تفكَّر وتأمَّل ضعف كيدك لما أطاعك ..

ابتسم ابتسامة واهية وقال محوِّلاً زمام الكلام محاولاً إخفاء ارتباكه:

– هل تتهرب من الإجابة ؟

أم تُرى ذلك الكيد الواهن الضعيف أصبح قويًّا متيناً وأعجزك رده ؟

– بدايةً .. لم أقل إن الله أرسل إليه شعاعاً أو اختصه به، إنما قلت إن قلبه رأى شعاع الله، فنور الله لا يبرح الكون، لكن بعض القلوب النقية تستطيع استقباله والاستغراق فيه، وبعضها يرفض فتح نوافذ الإيمان لاستقبال نور الله، فتبقى تلك القلوب مظلمة معتمة تعيث فيها الظلمات ليل نهار، أو قل ليل ليل، فتلك القلوب لا تعرف النهار أبداً ..

أما قولك إن الله لم يرسل رسلاً لكل الناس فهذا محض كذبٍ وافتراء، الله أخبرنا أنه ما من أمةٍ إلا خلا فيها نذير، و لم يكن ثَمَّة زمانٌ قبل زمان الأنبياء كما تدَّعى .. فأول من سكن الأرض نبيٌّ، و لم يخلُ زمانٌ من نبيٍّ قط، لا فى زمن

الديناصورات ولا فى غيره، ولم يخلُ مكانٌ من نبيٍّ أيضاً .. حتى مجاهل أفريقيا التى تشير بعض العادات المتوارثة عندهم إلى بقايا أديانٍ قديمة، وكل الحضارات فى كل العصور قد عرفت الإله الواحد وإن اختلفت فى تسميته، وهذا دليلٌ على أن الله قد أرسل إليهم من يهديهم إليه، أو ربما يكون الله قد أوحى إليهم مباشرةً وألقى فى قلوبهم فكرة التوحيد، ثم إنه قد يقبل منهم مجرد إيماءة أو التفاتة إلى السماء أو لحظة تأمل فيه وفى وجوده ووحدانيته ..

قاطعنى قائلاً:

- وأين دليلك أصلاً على وجود الله ؟

- ومن خلق الكون إن لم يكن الله موجوداً ؟!

كلُّ شيءٍ يدور فى فلك الكون حولك هو دليلٌ مادىٌّ قاطعٌ على وجود الله ..

كيف ينشأ هذا الكون من تلقاء نفسه بدون يد صانعة له مهيمنة عليه؟!

هل يُعقل أن أقول إن كتلاً من الحديد انصهرت وتشكلت على شكل هاتف وتكوَّنت برامجه ووظائفه الحيوية بمحض الصدفة ودبت فيه الحرارة بطريقة ذاتية ودون تدخلٍ من أحد؟!

إن كان هذا لا يُعقل فى حق الأشياء البسيطة فما بالك بالكون المركَّب المعقَّد ..

أخبرنى باسم شيءٍ فى الكون تكوَّن من تلقاء نفسه، أو أوجدته الصدفة ..

كل شيءٍ حولك فى الكون يدل على صانعه وخالقه الأوحد ..

– ومن أدراك أنه واحدٌ، وأنه ليس ثَمَّة آلهة أخرى لهذا الكون ؟

ومن أين أتى الله؟ ومن خلقه ؟

– الله هو الخالق، والخالق لا تنطبق عليه قوانين خلقه، ولا يجوز أن يكون خالقاً ومخلوقاً فى آنٍ واحد، فلو كان

مخلوقاً لكان غائباً قبل أن يُخلق، ولاحتاج لقوةٍ وقدرةٍ أكبر منه لتخلقه، فإن كانت هناك قوة وقدرة أكبر منه فكيف يكون إلهاً عليها، ولو كان مخلوقاً لكان له أوَّل، ومادام له أوَّل فله آخر، وهذا كله ممتنعٌ فى حق الله ..

ربما لا تعى ذلك لأنك تسير وفق قوانين المخلوقات التى وضعها الخالق، والتى ترى لكل شيءٍ بداية ونهاية، ولا تعرف شيئاً لا بداية له ولا نهاية، كتلك العرائس التى تتحرك بالخيوط وتحسب أن الإنسان الذى يحركها يتحرك بالخيوط هو الآخر، ولا تدرك محدودية عقلها وعدم استطاعته إدراك ما يفوق إدراكه ..

فالمخلوقات كلها لها بداية ونهاية، أما الخالق فلا بداية تحده ولا نهاية توقفه ..

أما بشأن الوحدانية .. فكل شيءٍ فى الكون يدل على وحدانيته، انظر إلى كل المخلوقات .. تجدها تعيش وتتنفس وتأكل وتتكاثر وفق نظامٍ واحد وإن اختلفت الكيفيات،

كلٌّ حسب رتبته ودرجته فى السلسلة الحيوية، وتجد كل الكائنات تتكون من نفس الوحدة المكونة وهى الخلية ..

وكل المواد لها نفس النظام .. نواة وإليكترونات وبروتونات، كل هذه الوحدانية فى أصول الكون دليلٌ على وحدانية الخالق والصانع والمصوِّر، وتؤكد أن الواجد واحد منفرد ..

ثم لماذا تتعدد الآلهة والأصل فى الإله الكمال، والتعدد لا يكون إلا فى ناقصٍ يحتاج إلى من يكمِّله، والله كاملٌ مترَّهٌ عن أى نقصٍ أو عيب، ثم لو كان لله شريكٌ فى ربوبيته .. كيف يتفق الشركاء ملايين القرون وبلايين السنين ؟

كل الشركاء والقرناء والأزواج يختلفون وربما ينفصلون ويفضُّون الشراكة .. تخيَّل أن الآلهة فضَّت شراكتها وذهب كل إلهٍ بما خلق ..

ثم لفترض أن للكون آلهة أخرى .. أين هم؟

إذا وجدنا مالاً فى الشارع ولم ينسبه لنفسه إلا واحد، ولم نجد غيره يدعيه لنفسه وينازعه فيه فهو له قطعاً ودون شك، ولم يخرج علينا أحدٌ يدَّعى الألوهية إلا ومات وفنى وهلك .. كل هذا يؤكد وحدانية الله وانفراده بالألوهية والربوبية ..

- أنت تجادل بغير علم ..

فربك نفسه الذى تدافع عن وحدانيته قد أكَّد أن ثمة خالقين غيره ..

أو لم يخبر أن عيسى يخلق من الطين طيراً ونحوه ..

ثم إنه لما أراد أن يمدح نفسه لم يفرد نفسه بالقدرة على الخلق ..

وإنما قال إنه أحسن الخالقين .. مما يؤكد وجود خالقين غيره ..

- لست أنا من يتكلم بغير علم .. إنما أنت من يدلِّس ويحمِّل الكلام غير معانيه ..

ليس ثمة خالق حق فى الكون غير الله الواحد الأحد الفرد الصمد ..

صحيح أن الله تعالى وصف نفسه أنه أحسن الخـــالقين، إذن فهناك خالقين آخرين، لكن الفرق كبير، فأولاً كلمـــة يخلق فى اللغة تعنى يصنع .. وهو ما عناه الله مـــن وصـــفه لعيسى بالخلق قبل أن يخبر أنه ينفخ من روحه فيمـــا صـــنع عيسى بيديه فيصبح طيراً بإذنه ..

فهو بذلك الخالق الوحيد وواهب الروح والحياة لما صنعه عيسى بيديه بأمرٍ من الله وإذنٍ منه ..

ثم إن الله يخلق من معدوم، أما غيره فيخلق من موجود.. فمن يصنع قلماً يصنعه من مادة أوجدها الله تعالى ..

وخلق الله يأتى بمثله بإذن الله، أما خلق البشر فلا، فـــلا يوجد قلم ذكر وقلم أنثى ينتجون لنا أقلاماً صغيرة ..

كما أن خلق البشر يبقى على حاله فلا يكبر ولا ينمـــو على عكس خلق الله فتبارك الله أحسن الخالقين ..

– وإن كان الله واحداً كاملاً عالماً كما تقول .. فلماذا تتعدد الأديان السماوية ؟

لماذا يترل الله ديناً ثم يبطله بدينٍ آخر ؟

وكيف يأمرنا بالدخول أفواجاً فى دينٍ ثم يأمرنا بالانسلاخ منه والدخول فى دينٍ جديد ؟

ولماذا يحلُّ شيئاً ثم يعود ويحرِّمه فى الدين نفسه، فينسخ أحكامه وكأنه يغير رأيه ؟

كيف يطالبنا بالثبات على الدين وهو نفسه لا يثبت عليه؟

– تعدد الأديان لا يعنى تعدد الآلهة ولا جهل الإله ولا نقصه، وإنما يرجع إلى تعدد مستقبلى الأديان وجهلهم ونقصهم، فالله يترل الدين بما يناسب مستقبليه، وبما يعالج مشكلاتهم، وبما يوافق قدرة عقولهم على الاستيعاب، فلما وعوه وأدركوا ما فيه تدرَّج معهم إلى مرحلة أكثر تطوراً .. وانظر إلى استقبال بنى إسرائيل للكتاب الأول .. تجدهم فى

حيرةٍ كبيرةٍ والتباسٍ شديد، فلما نضجت العقول إلى حد يسمح برسالة جديدة أنزلها الله لهم وهم على استعدادٍ لها .. حتى إذا وصلت البشرية إلى تمام النضج الذى يسمح لها باستقبال الدين الخاتم الجامع الشامل أنزله الله عليهم فى الزمان والمكان المناسبين لاستقباله، ووضعهما فى التربة التى تتيح له النمو والإزهار .. فتعدد الأديان ليس اختلافاً .. إنما تدرُّجاً، وأصول وثوابت هذه الأديان واحدة، ولا اختلاف إلا فيما يناسب أهل كل دين .. بيئتهم وزمانهم وعقولهم وما يصلحهم وما يصلح لهم ..

وكذلك نسخ الأحكام .. ليس غير تدرجٍ؛ فالخمر كان يوضع على الموائد مثل الماء، لا يشربون غيره، فإذا حُرِّم الخمر قطعيًّا لن يدخل أحدٌ منهم الإسلام .. أما التدرج فهو رحمة .. يبعدهم عنه خطوة بخطوة .. حتى إذا وجد فيهم القدرة على استقبال الأمر كاملاً أصدره إليهم وكلَّفهم به.. فالتدرُّج رحمة يمنُّ الله بها على عباده .

– مادام الله رحيماً .. فلماذا يحرم عباده من بعض نعمه فى الأرض؛ فيحل أشياء ويحرَّم أشياء أخرى .. وكلها من صنع يده .. فإن امتنعوا عن المحرمات حرَّم ما أحل بالصيام.. إن الله الذى تسميه رحيماً يستمتع بعذاب عباده وحرمانهم ..

– الدنيا بالأصل ليست دار نعيمٍ .. إنما هى دار اختبار، وضع الله أمامنا السبيل الذى يوصلنا لدار النعيم المقيم، وحتى نستحقه علينا أن نتنازل عن بعض الأشياء فى الدنيا، بينما وضعت أنت العراقيل التى تمنعنا بلوغ هذا النعيم، وأوهمتنا أن النعيم بين أيدينا، وأغريتنا بالمعاصى وأقنعتنا أن لها لذة عظيمة ..

ثم إنَّا لو نظرنا فيما حرَّم الله لوجدنا أنَّ فى تحريمه خيراً كثيراً، فالله حرَّم الخمر الذى يُذهب العقل ويدفع الإنسان اللاعاقل حينها إلى اقتراف الجرائم فى غياب وعيه وإدراكه، وحرَّم الزنا الذى لو لم يكن لتحريمه حكمة سوى حفظ

الأنساب من الاختلاط لكفى، وهكذا .. كلُّ تحـــريمٍ ولـــه علة، تماماً كتحريم ثمـــرة الـــشجرة علـــى آدم .. فـــبعض التفسيرات تشير إلى أنه كان يرتع فى الجنة كما يشاء، يأكل كل ما تشتهى نفسه ولا يُخرج فضلات؛ لأن ما قـــدَّره الله له من الطعام يساوى ما يحتاجـــه جـــسمه دون زيـــادة أو نقصان، حتى أكل من الشجرة فاختل هذا التوازن، فكانت النتيجة أن أنتج جسمه الفضلات التى عبَّر عنـــها الـــسياق القرآنى بأنه رأى سوأته وراح يواريها بـــورق التـــوت .. فانتهاك الحرمات يؤدى إلى اختلال التوازن الذى رسمـــه الله بعناية فائقة ..

أما الصيام فهو عبادة نؤديها لنستحق الجنة، ولله منـــها حكمة بالغة وهى تدريبنا علـــى التقـــوى وتقويـــة الإرادة والعزيمة والصبر عن المحرمات، وكأنَّ هذا الشهر الكريم هو فترة إعدادٍ كالتى تقوم بها فرق كرة القدم قبل بدء الموسم،

فهو شحن للتقوى فى قلوبنا حتى نستطيع مواجهة إغرائتك اللانهائية ..

- والصلاة .. هل هى أيضاً سلاح لمواجهتى ؟

إن ربكم يتمتع بإذلالكم فى الصلاة كل يوم ..

تضعون أنوفكم فى الأرض مهدرين كرامتكم وكبرياءكم تحت مسمى العبادة ..

أين العبادة فى ذلك ؟

- المعبود وحده هو من يحدد طريقة العبادة التى ترضيه والتى يعلم مدى صلاحيتها ومناسبتها لعباده .. تماماً كالمعلم الذى يحدد طريقة الشرح التى تناسب تلاميذه وتأتى بنتيجةٍ ترضيه فى النهاية ..

ثم أين الإذلال فى السجود إلى الأرض .. أولسنا منها .. أو لم يخلقنا الله من ترابها .. إن الأرض هى أصل أجسادنا .. لذلك أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد .. لأن مكوناته تقترب من أصليها .. مكونه المادى الترابى يكون

أقرب ما يكون إلى أصله .. الأرض، فيكون مكونه المعنوى الروحانى أقرب ما يكون إلى أصله .. الله ..

لا إذلال أبداً فى ذلك .. بل إنها قمة العزة ألا نتعلق بغير خالقنا وننفذ ما أمرنا به ..

ثم إن للصلاة متعة ولذة لا تستطيع أنت إدراكها .. إنها لقاء مع الله .. نقف بين يديه ونناجيه .. أنا لا أراها عبادة بقدر ما أراها منحة من الله للبشر .

- والحج .. أتراها منحة أيضاً من الله .. أم مجرد ازدواجية ..

أليس هو نفسه من حرَّم عبادة الحجر واتهم عبَّاد الأصنام بالكفر، ثم يأمركم أن تطوفوا حول حجر وتقبِّلوا حجر وترموا حجر بحجر .. إنها الوثنية بعينها .. يحاربها ربكم ثم إذا به يأمركم بها ..

أليست ازدواجية ؟

- أولاً كلمة حجر لا تساوى كلمة صنم؛ فالصنم هو الحجر المنحوت على هيئة مخلوق يُعبد من دون الله، وهو ما حرَّمه الله على خلقه .. حرَّم أن يعبدوا ما سواه ..

أما مسألة الحج فهى ليست وثنية بالمرة إنما هى مسألة رمزية تبدأ بخروج الناس من بلادهم ومناصبهم وأحوالهم وحتى ملابسهم، وتجردهم من كل شىء يتفاوتون فيه، ليلتقوا فى مكانٍ واحدٍ .. يتساوون فى كل شىءٍ دون أفضلية لأحدٍ عن الآخر .. وكأنه استحضارٌ لمشهد عظيم لم يحن زمنه .. مشهد البعث والحشر .. استحضارٌ لتلك المشاعر حتى يتعلق بها القلب خوفاً ورجاءً .. فيصفو مما خالطه من شوائب الدنيا ..

والحجر الذى نطوف حوله هو بيت الله الأول فى الأرض؛ ونحن حين نعظِّمه ونقدِّسه فنحن لا نعظِّم ولا نقدِّس حجارته، إنما نعظِّم صاحبه ونقدِّسه ..

وأما الحجر الذى نقبِّله فهو حجرٌ من الجنة لا نقدِّسه ولا نعظِّمه لنفسه، وإنما ائتماراً بأمر رسول الله كما قال عمر بن الخطاب لما استقبل الحجر: أما والله لقد علمت أنك حجر، لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله يقبِّلك ما قبَّلتك قط .. فالأمر اتباع للآمر فقط ..

وهذا التقبيل ليس لنفس الحجر ولا لذاته، إنما لصاحبه.. كمن يقبِّل خطاباً أو هديةً من حبيبته ..

أما رمى الجمار فيتجسد فيه معنى الرمزية بوضوحٍ شديد، فهى مجرد حصيات نسميِّها جماراً .. والجمار هى قطع الحجر المشتعلة من شدة اللهب .. فهى مجرد رمز .. ونرميها على ما يمثلك أنت .. فكأننا بذلك نعلن براءتنا منك ومن كل وسوساتك مستعينين بالله الواحد الأحد بعدما خلصنا من كل شيءٍ يربطنا بالدنيا ..

– وماذا عن الطواف والدوران حول الكعبة ..

لماذا تلك المشقة بلا داعٍ ؟

– أخبرتك سابقاً أن العبادة متعة ولذة وليست مشقة، وانظر إن شئت إلى اندفاع الناس على مكاتب الحجز لرحلات الحج والعمرة ..

ثم إنها ليست أعمال عشوائية بلا داعٍ، إنما لها حكمة بليغة قد فصَّلتها لك ..

ومسألة الدوران هى سنة كونية أصلاً من أصغر جزءٍ لأكبر جرم .. بدءًا من الإليكترونات التى تدور حول الذرة، مروراً بالقمر الذى يدور حول الأرض، والأرض التى تدور حول الشمس، والشمس حول المجرة .. وهلُمَّ جرَّ ..

– لكلِّ شيءٍ عندك حكمة ..

فما الحكمة العظيمة ياترى من خلق الذباب والبعوض ؟

ولماذا خلق الله الفئران والضفادع والثعابين ؟

وفى الكون الكبير .. لماذا كل هذه الكواكب والأقمار والنجوم والسدوم والنيازك والشهب والمجرات الطويلة العريضة لتقتصر الحياة فى النهاية على كوكبٍ واحدٍ فقط ؟

وفى نفسك .. ما فائدة شعر الرأس والحواجب والرموش والأنف ؟

– لم يخلق الله شيئاً بلا سببٍ أو حكمة، فالله مترَّهٌ عن العبث، ولكل مخلوقٍ صَغُرَ أو كَبُرَ مهمة ودور فى المنظومة الكبيرة، وليس معنى ألا تُدرك أنت هذا الدور أنه غير موجود، فعدم إدراكك للأشياء لا ينفى وجودها، وإن كنت تتكلم عن الذباب والبعوض على أنها أشياء حقيرة لا قيمة لها .. فهى فاعلة فى التاريخ ومن الممكن أن يتغير التاريخ بسبب بعوضة، ألم تقتل الإسكندر الأكبر بعوضة؟

ألم توقف تاريخه بعوضة نقلت له مرضاً مات على أثره ؟

ألم يرسل الله جيشاً إلى النمرود قوامه البعوض والذباب؟

ثم إنه الآن فى بعض الدول كألمانيا وكندا وبريطانيا قد استخدموا يرقات الذباب فى العلاج؛ فهى تلتهم الأنسجة الفاسدة فى الجروح أسرع من أى عقارٍ أو دواء ..

حتى الفئران كانت فاعلة فى التاريخ إذ ساعدت فى انتصار جيوش على أخرى بأن نقلت الطاعون إلى بعض الجيوش التى كان ضحاياها من أثر الطاعون يتجاوز العشرة آلاف يومياً، كما أن للفئران دور كبير فى إجراء التجارب عليها والكشف عن الألغام ونزعها ..

ولا يخفى على أحد أن الثعابين شريكٌ أساسى فى صناعة الأدوية والأمصال والعقاقير الطبية، وشريكٌ أصيلٌ أيضاً فى الصناعات الجلدية ..

ثم إنَّ هذه الكائنات التى لا تعجبك وتثير اشمئزازك لها دورٌ كبيرٌ فى إقرار التوازن الطبيعى، إذ إن بعضها يتغذى على بعض وتدخل فى السلسلة الغذائية لحيوانات أخرى بأن تكون مصدر غذاء لها ..

وكذلك الكواكب التى جعلها الله زينة لنا، والنجوم التى يهتدى بها الناس فى ظلمات البر والبحر، والأقمار التى تنير الليالى وتُعد مواقيت للناس فيعرفون بها الزمن ويحسبون بها

الأيام والشهور، والشهب التى تحرق من تسلل من الشياطين ليسترق السمع ..

فضلاً عن كل هذا فهى تحفظ التوازن الكونى وتؤمِّن ثبات الحركة المدارية مثلها تمامًا مثل الإليكترونات حول النواة ..

فهى تصل بالمجموعة ككل إلى حالة من التوازن الكونى فلا تقترب من أجسام بفعل قوة الجذب و لا تبتعد عن أجسام متجهة بعيداً بفعل قوة التنافر، وكذلك حماية لكوكب الأرض حتى لا يبتعد عن مداره و يسقط فى الظلام..

ثم من أخبرك أن الأرض فقط هو الكوكب الذى تقوم على سطحه حياة، فربما كانت حياة من نوعٍ مختلف تقوم على الكواكب الأخرى ..

من يدرى !!

أما فى نفسى .. فإن شعر الرأس يدفئ الرأس شـــتاءً؛ إذ يقلل الفاقد الحرارى للجسم فى الأيام الباردة عـــن طريـــق حجز الحرارة بين خصلات الشعر ..

أما فى الصيف فهو يقى الرأس من الأشعة فوق البنفسجية الضارة ..

أما الحواجب فهى حواجز للعـــرق المحمـــل بـــالأملاح والأتربة حين يتساقط من الجبهة والجبين حـــتى لا يـــصيب العين ..

وشعر الرموش والأنف هى فلاتر من الأتربـــة حـــتى لا تدخل العين فتؤذيها أو الأنف ومنه إلى الرئة ..

وقس على هذا فى كل شىء .. فلم يخلق الله شيئاً عبثاً، وإنما لكل شىءٍ دورٌ يؤديه بدقة متناهية، ولا يخرج عن النص الذى رُسم له فى رواية الحياة ..

لكلِّ شىءٍ حكمة من خلقه .. أحياناً تكـــون الحكمـــة واضحة ظاهرة جليَّة، وأحياناً تكون الحكمة خفيـــة غـــير

معلومة، وأحياناً يكشف العلم والتجارب والمشاهدات بمرور الأيام حكمة خلق بعض الأشياء .. ولكن بعضها يبقى مجهولاً غائباً عن العقل والإدراك .. لكن هذا لا يعنى عدم وجوده بقدر ما يعنى قصور العقل البشرى الصغير الضعيف مهما بلغ من العلم والمعرفة عن إدراك كل جوانب الصورة والإلمام بكل خيوط الرواية لأنه جزءٌ منها ..

– أنت تناقض نفسك .. تقول حيناً إن الإنسان مخير فى كل ما يفعل .. وتقول حيناً إن له دور مرسوم فى رواية الحياة ..

– أنا لم أقل ذلك .. حينما قلت إن المخلوقات تسير حسب الأدوار المرسومة لها فأنا أقصد كل المخلوقات التى كنت تسأل عنها باستثناء الإنسان ..

الإنسان ليس مجرد ممثل فى دورٍ مكتوبٍ له يكتفى هو بتأديته .. ليست الحياة تلك المسرحية الهزلية التى تحاول إقناعنا بها، إنما الإنسان يختار كل أفعاله بكامل عقله ووعيه

وإدراكه .. وبقية المخلوقات لم تخلق بالأصل إلا تسخيراً للإنسان العاقل المكلَّف الذى سيحاسب على أعماله بخلاف جميع المخلوقات .

– وماذا عن المرأة .. هل هى الأخرى سخرها الله لخدمة الإنسان ؟

– ومن قال إن المرأة ليست إنساناً ..

قاطعنى بحماسٍ شديدٍ وكأنما عثر على كترٍ أو قل عثر على قنبلةٍ يرميها فى وجهى فلا أستطيع رداً:

– ربكم من قال ذلك .. التفريق بين الرجل والمرأة واضحٌ جليٌّ لا يحتاج نقاشاً ..

ألم يفرض ربك للذكر مثل حظ الأنثيين ؟

ألم يعطِ الرجل حق الزواج من مثنى وثلاث ورباع، بينما المرأة لا تتزوَّج غير رجلٍ واحدٍ فقط ؟

ألم يقصر النبوة والإمامة والخطابة على الرجال وحرم النساء ؟

ألم يصمها نبيكم بنقصٍ فى العقل والدين ؟

– ليس فى الأمر ثَمَّة ظلمٌ للمرأة؛ بل للمنصف أن يقول إن فى ذلك ظلماً للرجل وتمييزاً للمرأة؛ فبالنظر إلى آية المواريث بتمعن نجد أن الله لم يقل للأنثى نصف حظ الذكر، لأنه لو قال ذلك لكان نصيب الذكر هو المقياس، أما حين قال للذكر مثل حظ الأنثيين، فقد جعل نصيب الأنثى هو الذى يُقاس عليه نصيب الذكر، هذه واحدة ..

أما الأخرى، فتكون بالنظر إلى واقع الحياة، فالرجل إما متزوج وإما غير متزوج، فإن كان متزوجاً فهو ينفق على نفسه وعلى زوجته، وإن كان غير متزوج فهو يبحث عن زوجة فيقدّم لها مهراً ويشترى لها شقة ونحوه، والمرأة إما تكون متزوجة أو غير متزوجة، فإن كانت متزوجة فلها زوجٌ تلزمه نفقتها ولا تلزمها نفقته، وإن كانت غير متزوجة فهى تنفق على نفسها فقط إن عدمت رجلاً ينفق عليها كأبٍ أو أخ ..

إذن فما تأخذه المرأة وهو نصف الرجل يكون خالصاً لها، وما يأخذه الرجل وهو ضعف المرأة يكون له ولامرأةٍ أو أكثر ممن تلزمه نفقتهن، فكأن هذا عين التمييز والمحاباة للمرأة ..

أما حق الزواج بأكثر من امرأة فهو حرص على المرأة لا على الرجل؛ لأن الرجال يموتون فى الحروب والمعارك وغيره، فتصبح نسبة الرجال أقل من نسبة النساء؛ فحتى يقى الله النساء شر العنوسة أباح للرجل أن يجمع بين أكثر من زوجة إن أراد ..

فبدلاً من أن يقيما علاقة فى الظل رخَّص الله لهما الزواج فى النور ..

ولا تنسَ أن الوضع الجاهلى آنذاك كان يبيح للرجل أن يتخذ ما يشاء من النساء، فكان الرجل يتزوَّج عشر نساء إن أراد وربما أكثر، فيكون بذلك تحديد الأربعة تقييداً وليس تعديداً ..

ثم إنه يكاد يكون معطَّلاً لاقترانه بشرط تحقيق العـــدل وهو الأمر الصعب ولو حرصتم ..

أما المرأة فلا يجوز أن تتزوج إلا من رجلٍ واحـــدٍ منعـــاً لاختلاط الأنساب ..

أما مسألة قصر النبوة والرسالة على الرجال فـــذلك لأنّ الرسالة تقتضى الاشتهار بالدعوة، ومخاطبة الرجال والنساء، ومقابلة الناس فى السرّ والعلانية، والتنقل فى فجاج الأرض، ومواجهة المكذبين ومحاججتهم ومخاصمتهم، وإعداد الجيوش وقيادتها والاصطلاء بنارها، وكل هذا يناسب الرجال دون النساء ..

وكذلك الإمامة والخطابة .. فسيكولوجية المرأة تختلـــف عن الرجل جملةً وتفصيلاً ..

وأهم ما تختلف فيه المرأة هو الحيض والولادة والنفـــاس والرضاعة .. مما لا يُمكِّنها من القيام بهذه الأمـــور علـــى وجهها الأكمل ..

كما أن الله قد قسم الأدوار والمهام بين الرجل والمـــرأة، ودور المرأة فى بيتها زوجة وأم، وتكوينها الجسدى والعقلى يتناسب تماماً وتلك المهمة ..

أما كون المرأة ناقصة عقلٍ ودين، فهو وصـــفٌ ولـــيس وصماً .. المرأة ناقصة عقلٍ لأن عاطفتها تغلـــب عقلـــها، وناقصة دينٍ لأنها –معذورة- بمنعها الحيض والنفاس عـــن الصلاة والصيام وقراءة القرآن أياماً ..

ليس فى هذا كله أى تمييز أو محاباة للرجل .. فمن عمل عملاً صالحاً من ذكرٍ أو أنثى سيجزيه الله أجره كاملاً غـــير منقوصٍ .

- أراك مصرًّا على إقحام العدل فى كل جملة تقولها بينما لا أثر له فى الواقع .. وأنت أول المظلومين ..

هل آثرك الله بمعجزة حتى تدافع عنه كل هذا الدفاع .. ثم أخبرنى كيف بمحامٍ مثلك يدافع عن أشياء لم يرها ولم يرَ عليها دليلاً واحداً ..

هل رأيت سفينة نوح وهى تجوب العالم وعلى ظهرها الحيوانات الأليفة والمفترسة والبشر متجاورين ؟

هل رأيت نملة تتكلم أو هدهد ينطق ؟

هل رأيت الجن يبنون لسليمان المحاريب والتماثيل ؟

هل رأيت عصا تلقى على الأرض فتتحول إلى حية عظيمة بقدرة قادر، ثم تضرب البحر فتشقه، ثم تضرب الحجر فيخرج الماء منه على طريقة جلا جلا ؟

هل عاينت الطوفان والضفادع والجراد والقمل والدم ؟

هل رأيت المسيح وهو يتكلم فى المهد ؟

هل رأيته يحيى الموتى ويصنع من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً ؟

هل رأيته يبرأ الأكمه والأبرص ؟

كيف بك تؤمن بكل هذا و لم تره ؟

ثم أليس فى هذا تمييزاً لمن رأى واستغفالاً لمن لم يرَ ؟

– لست أنا من يقحم العدل فى كل جملة، فالعدل هو قانون الكون، إنما أنت من تقحم الظلم فى كل كلامك، تحاول أن تلحقه بالله وهو مترَّهٌ مقدَّسٌ عن ذلك، فالظلم يحتاجه ضعفاء الحجة والمنطق، والله حكيمٌ قويٌّ عزيز ..

ثم إن تلك المعجزات ليست سحراً ولا شعوذة ولم تتم على طريقة جلا جلا، لكنها نزلت لأناسٍ بصريين، لا يستشرف الإيمان قلوبهم، فكانوا بحاجة لمعجزات بصرية حتى يؤمنوا ..

أما إيمانى بما لم أرَ؛ فالإيمان أصلاً يقوم على تصديق الغيبيات وليس على المعاينة، فنحن نصدِّق الله فى أبعد من العصا والطوفان والضفادع .. نصدِّقه فى أن حياةً باقيةً بعد الموت، وأن خلداً ينتظرنا إما فى جنةٍ أبديةٍ أو نارٍ أبدية، بل إننا نصدِّق وجود الله نفسه دون أن نراه .. لكننا رأينا أثره فيما خلق وأبدع، رأينا حكمته وقدرته وجلاله فى كل صغيرة وكبيرة فى الكون ..

ثم ما بال من رأى .. أكثرهم لم يؤمن بما رأى معاينةً، بل وقالوا سحرٌ مفترى، وكفروا به جهاراً نهاراً، لأنهم مكابرون معاندون نفوسهم جاحدة، أما المؤمنون أصحاب النفوس النورانية تؤمن قلوبهم قبل عيونهم ..

ثم إن فى ذلك أيضاً رحمة .. فمع نزول المعجزات يشتد العذاب؛ لأنه كما أشرت ليس من سمع كمن رأى، فمن رأى وكفر له عذابٌ شديد؛ لأن المعجزة البينة الواضحة هى حجة أقيمت على من رآها ..

ثم إن الله بعلمه وحكمته يعلم ما يناسب كل عبدٍ من عباده.. سواء بالرؤية أو بالسمع ..

ثم إن الله قد اختصنا بالمعجزة الباهرة الخالدة التى حوت المعجزات وما طواها زمن ولا غيَّبها مكان .. اختصنا الله بكلامه المعجز الهادى الشافى .. القرآن .

ابتسم فى خبثٍ وقال بلهجةٍ ساخرة:

- القرآن .. ذلك الكلام الملغز المشفر غير المفهوم ..

ما معنى إيلاف قريش ؟

وإلام ترمز تلك الطلاسم التى تستفتح بعض السور مثل الم .. الر .. كهيعص .. حم .. ص .. ق ..

يبدو هذا الكتاب أشبه بحجر رشيد !

– كتاب الله ليس لغزاً ولا شفرة ولا مجرد طلاسم غير ذات معنى .. لكن لا يفهم معناها غير العارفين ..

هل تستطيع أن تخبرنى ما معنى س و ص وجا وجتا وظا وظتا ..

وما معنى (ل1 + ل2)/2 × ع ..

وما معنى ط نق^2 ع ..

هل تستطيع أن تفهم ما يكتبه الطبيب فى روشتته .. ثم كيف يفهمه الصيدلانى ..

إن كل هذه الرموز لا يفهمها غير العارفين بها، ومن سواهم يرونها طلاسم غير مفهومة، كذلك القرآن من أراد أن يفهمه عليه أن يفهم لغته أولاً، لابد أن يدرس اللغة التى

نزل بها والظروف التى نزل فيها والسبب الذى نزل من أجله، فكما تذهب لأهل العلم بالطب لتعرف ما بك من علة وما لها من علاج فعليك أن تذهب لأهل العلم بالقرآن لتعرف ما فيه معانٍ ..

أما الحروف المقطعة التى استهل الله بها بعض سوره فقد قال فيها العلماء ما قالوا .. فمنهم من قال هو من علم الله الذى استأثر به و لم يُبيِّنه لخلقه، قال أبو بكر الصديق: لله فى كل كتابٍ سر، وسره فى القرآن أوائل السور، وسئل الشعبى عن ذلك فقال: سر الله فلا تطلبوه، بينما حاول بعض العلماء تفسيرها، فذهب بعضهم إلى أنها أسماء للسور، وذهب آخرون إلى أنها أسماء القرآن، بينما رأى البعض أن كل واحدٍ من هذه الحروف يدل على اسم من أسماء الله وصفة من صفاته، فمثلا "الم" تشير إلى أن الله الأحد اللطيف المنان، حيث أشار كل حرفٍ منها إلى أول صفة من صفات الله، بينما قال ابن عباس "الم" تعنى أنا الله أعلم،

و"الر" أنا الله أرى، و" المص" أنا الله أفصل، وقال بعـــضهم هى حروف أقسم الله بها، وقال آخرون هى أكثر الحروف دوراناً فى السورة، وهى أكثر الحروف مناسبةً للموســـيقى الداخلية للسورة، وأقوال العلماء كثيرة فى هذا الباب، وجملة القول فيه أنها حروفٌ ابتدأ الله بها بعض السور إشـــارة إلى إعجاز هذ القرآن وإمعاناً فى التحدى مع هؤلاء المـــشركين الذين ملكوا أزِّمة اللغة، ونؤمن أنها من عند الله سواء أفهمنا معناها أم لم نفهم ..

اتسعت ابتسامته الخبيثة وهو يقول:

– ومن أدراك –بالأصل– أنه من عند الله ؟

ومن أخبرك أن يد التحريف والتغيير والتبديل لم تمتد إليه وتعبث فى سوره وآياته ؟

ولماذا لا يكون محمدٌ هو من كتبه بنفسه وادَّعى أن وحياً يتنزل عليه ؟

- واضحٌ من نظم القرآن أنه جاء على غير مثال، يعجز البشر بما بلغوا من علمٍ وبلاغةٍ وأدب أن يكتبوا مثله، وقد تحداهم الله إنساً وجنًّا مجتمعين أن يكتبوا مثله، فلم يستطيعوا؛ لأنه ليس كمثله شيء، بل إن معاصريه ممن كفروا به شهدوا لبيانه وبلاغته، رغم ما غاب عنهم مما حوى من معجزات علمية وتاريخية بل ومستقبلية ..

كلام الله يخترق كل الحجب .. يخترق حجاب الزمان فيخبرنا عن آثار الأمم السابقة وأخبار الأمم اللاحقة، ويخترق حجاب المكان فيخبرنا بما يقع فى أرض الفرس والروم وسبأ ومصر وغيرها، وحتى حجاب النفس البشرية يسبر أغوارها ويكشف عن حقائقها ودقائقها وتفصيلاتها ..

ويخترق حجاب العلم فيخبر بقضايا لم يتوصل إليها العلم إلا مؤخراً مثل كروية الأرض ودوارنها وحركة الجبال معها وتعاقب الليل والنهار دون أن يسبق أحدهما الآخر وتعدد مشارق الأرض ومغاربها .. حتى الذرة وما أصغر منها ..

والإعجاز الأكبر من هذا كله هو الصيغة التى حوت هذا العلم دون أن تتعالى على عقول المستقبلين فى أى زمانٍ ومكان، فيقرأ الأعرابى الجاهل هذا العلم البحت فى كلمات يفهمها ويعيها، لكنه لا يدرك غير وجهٍ من معانيها التى تتكشف يوماً بعد يوم ..

فيقرأ الذرة مثلاً وهو يدرك أنها النملة، ولا يدرك الوجه الآخر للكلمة والذى يحتمل المعنى العلمى الذى لن يفهمه إلا الأمم التالية له المتقدمة عليه ..

أما يد التحريف والتغيير فلم تقرب كتاب الله إطلاقاً، والدليل أن القرآن منذ نزوله إلى اليوم لم يتغير فيه حرفٌ ولا شكلة، ويكفى وعد الله بحفظه بمنأى عن التحريف ..

أما محمدٌ فلا يمكن أن يكون هو من ألَّف كتاباً يحمل فيه لنفسه عتاباً إذ تولَّى عن ابن أم مكتوم، أو ينقض عملاً من أعماله إذ رأى افتداء الأسرى يوم بدر، أو يحذر نفسه من العقاب إن لم يبلغ الرسالة على وجهها ..

ثم من أين لمحمدٍ بكل هذا العلم وأنى له كشف كل تلك الحجب ومعرفة كل تلك الخفايا وهو الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ..

قاطعنى وهو يهزَّ رأسه هزة سخريةٍ واستخفاف وقال:

- وكيف بكم وفيكم العلماء الأجلاء والأدباء الحصفاء والمفكرون الألبَّاء أن تتبعوا رجلاً أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ؟

- يبدو أنك صرت تهذى وتناقض نفسك، تدَّعى أن القرآن مِن وضعه .. فلما قلنا إنه كان أميًّا تنكر علينا اتباعه.. وما جعله الله أميًّا إلا درءاً لتلك الشبهة .. أن يتهمه أحدٌ بتأليف القرآن ..

ثم إن هذا الأمى قد علَّم البشرية كلها علماً قد أوحاه الله له من فوق سمواتٍ سبع، فخرج بها من الظلمات إلى النور؛ لأن علمه ليس ذاتياً وليس من عنده .. إنما هذا العلم من لدن الله العليم الخبير .. إنما هو وحىٌ يوحى ..

– وإذا كان محمدٌ هو ذلك الآدمى البشرى الذى يخطئ ويصيب .. فلماذا لم يرسل الله ملائكةً لا تخطئ ؟

أليس أجدر برسل الله العظيم أن يكونوا على قدر عظمته ؟

– أولاً دعنا نتفق أن أحداً لا يدانى الله عظمة، فلا أحد على قدر عظمته ..

ثم دعنى أصحح لك ما تفتريه من كذبٍ .. محمدٌ بشر لكنه يتلقى العلم من عند الله .. وبالتالى فهو لا ينطق عن الهوى، وهذا يعصمه من الضلال والغواية .. لكنه بشر .. وبحكم بشريته قد يتصرف تصرفاً عفوياً يحتمل الخطأ .. لكن الله لا يلبث أن ينبهه إلى خطئه ويصوبه له .. فلا يقره الله على خطأٍ، ولا يصر هو نفسه عليه .. وجملة القول إنه معصومٌ عن الكبائر دون الصغائر ..

أما قولك عن إرسال الملائكة فهو مردود .. فعين الحكمة أن يرسل الله رسولاً من جنس المرسل إليهم، وإلا

رفضوا تلك الرسالة بدعوى أنهم لا يطيقون ما يطيقه الرسول، ولا يقدرون على ما يقدر؛ لأن قدراته تفوق قدراتهم، وطبيعته مغايرة لطبيعتهم .. ولو كان فى الأرض ملائكةٌ لأرسل الله إليهم ملكاً ..

– أنت تزعم أن الله لم يرسل ملائكة إلى البشر .. لكن الله بنفسه أخبر فى القرآن أنه اصطفى من الملائكة رسلاً ..

– إن الله لم يصطفِ الملائكة لتباشر الناس وتخاطبهم، إنما اصطفى من الملائكة من يوصِّل الرسالة إلى من يصطفيه من الرسل، كأمين الوحى جبريل هو رسول الله إلى محمد، ومحمد هو من يبلِّغ الرسالة إلى البشر ..

– دعك من هذه السيرة .. أنا لا أحب الملائكة ولا أحب الحديث عنهم ..

أخبرنى .. هل من العقل والحكمة أن تعمل وتتعب وتكدَّ وتعرق ثم تذهب إلى أشخاص لا تعرفهم وتمنحهم ثمرة عملك بدون أى مجهودٍ منهم ؟

أليس الله نفسه من قسَّم الأرزاق ؟

ألا يستطيع أن يرزقهم إن شاء ؟

أتعدِّل على الله فى رزقه وتقسيمه ؟

أنت بفعلك هذا تَسِمُ الله بالظلم وتردُّ عليه قسمته وتغير قضاءه وقدره ..

– صحيح .. لو شاء الله لرزقهم وأغناهم من فضله، لكنه لمَّا استخلفنا فى الأرض أمرنا أن نقوم بواجبات تلك الخلافة .. ثم إنه ما أغنانا حبًّا فينا ولا أحوجهم بغضاً لهم؛ إنما هما اختباران قدَّرهما الله لعباده .. اختبار الغنى واختبار الفقر، اختبار الشكر واختبار الصبر ..

فنحن حين نساعد الفقراء لا نعدِّل على الله، إنما نحقق مرغوب الله فى خلقه وفى كونه ..

ونحن لا نمنح الفقراء ثمرة عملنا كما تدَّعى .. إنما نعطيهم بعض ما اختصنا الله به من رزقٍ ليختبرنا فيه .. نعطى الفقراء تقرباً لله وإرضاءً له، نشترى الجنة بهذه

الصدقات الزهيدة، فبهذا نحن من نحتاج الفقراء وليسوا هم من يحتاجوننا ..

إننا لا نفقد المال الذى نمنحه للفقير .. إنما نرسله لأنفسنا فى زمانٍ آخر .. حتى نستحق الجنة ..

ضحك بصوتٍ مفتعل وكأنه يحاول أن يوارى غيظاً شديداً ثم قال:

- الجنة !!

وهل تصدِّق حقًّا أنها موجودة ؟

ثم إن افترضنا جدلاً أنها موجودة .. فهل تفكر للحظة أنك ستدخلها بعد كل الشروط التعجيزية التى وضعها ربك؛ يصفك بالخطَّاء ثم لا يقبل منك الخطأ ..

لقد طرد منها آدم وهو نبيه وصنعة يده وهو لم يقترف سوى ذنبٍ واحد .. فما بالك أنت بكثرة ذنوبك ؟

ثم من أدراك أنك إن دخلتها لن يحرِّم عليك شيئاً كما حرَّم على آدم وزوجه ؟

ولعله يطردك منها كما طرد آدم وحواء دون أية شـــفقة أو رحمة ..

– بالطبع الجنة موجودة والنار موجودة؛ وإلا لكانـــت الحياة مجرد عبث والله مترَّهٌ عن العبث متعالياً عليه ..

وعن دخول الجنة دعنى أخبرك أنى لا أعلم إن كنت من ساكنيها أم لا .. لكننى بالطبع أرجـــو الله أن يكتبـــها لى ويكتبنى لها .. والله لم يجعل لدخول الجنة شروطاً تعجيزية .. صحيح إنه أمرنا أن نخالف هوانا ونتجنب ما تعدنا أنت به وعدم الركون إلى الدنيا .. وصحيح أننا لا نستطيع أن نلتزم بذلك تمام الالتزام .. وصحيح أيضاً أننا خطاءون .. لكـــن الله ينتظر منا توبة حتى يغفر لنا .. أوبة حتى يرحمنا .. التفاتة إليه فى تضرع ولجوء إليه فى خضوع حتى يقبلنا ويتغمـــدنا برحمته الواسعة وعفوه اللامحدود ..

الله يفرح بتوبتنا أكثر مما تتصور .. لأن فى التوبة إعلان البراءة من كل شيءٍ سواه .. إعلان الخضوع والاستسلام له

وحده .. إعلان الخروج من كل ظلمات الـــدنيا إلى نـــوره الذى لا يطفئه ذنبٌ ولا معصيةٌ مادامت تتبعها توبة صادقة واعترافٌ بالخطأ فى سلوك طريقٍ غير طريقه .. وسبيلٍ غـــير الذى رسمه لنا بحكمته وعلمه ..

الله يغفر كل ذنبٍ مادام صاحبه قد أقلع عنه وأعلن ندمه عليه .. ولم يصر ولم يستكبر كما هو الحال بالنسبة لك .. لذلك لا أندهش وأنا أراك غاظباً مغتاظاً وأنت تتكلم عـــن الجنة؛ لأنك لن تشم ريحها يوماً ..

أما ادعاؤك أن الله قد طرد آدم من الجنة فهذا مردود .. فالله لم يخلق آدم بالأساس ليعيش فى الجنة وإنما خلقه ليجعله خليفة فى الأرض .. وليس فى الجنة .. ثم إن الله قد تـــاب عليه وسيدخله الجنة يوم الحساب ..

ثم إن آدم لم يدخل جنة الخلد أصلاً .. فجنة الخلـــد لا يدخلها إلا مستحق .. وآدم كان فى حياته الأولى حينها .. ثم إن من يدخل جنة الخلد لا يخرج منها بحالٍ من الأحوال،

وجنة الخلد ليس فيها شيءٌ ممنوعٌ أو متروعٌ أو محرَّم، وهو ما يؤكد أن الجنة التى سكنها آدم ليست جنة الخلد ..

فكلمة جنة التى وُصف بها المكان الذى عاش فيه آدم معناه الحديقة .. وهو نفس الوصف الذى وصف الله به فى قرآنه أصحاب الحديقة الذين منعوا الزكاة فسماهم أصحاب الجنة ..

فالمكان الذى كان فيه آدم هو مجرد مكان إعدادى تحضيرى له قبل أن يباشر مهمته على الأرض .. كالحضَّانة التى يدخلها الوليد قبل أن يخرج للعالم الخارجى .. حتى يعلِّمه الله ما يحتاجه فى الأرض ثم يتزله إليها .. لأنه ما خلقه إلا ليستخلفه فى الأرض ..

أما جنة الخلد فيدخلها بعد البعث إن شاء الله ..

راح يضيِّق عينيه ويفرك كفيه فى خبثٍ وهو يقول:

- وهل تصدِّق أن هناك بعثاً بعد الموت ؟

هل رأيت دليلاً لهذا ؟

هل عاينت تجربةً عليه ؟

هل سمعت قبلاً عن أحدٍ مات ثم بُعِث بعد موته ؟

ثم قل لى .. كيف يحيا التراب الذى تفـــرَّق فى الأرض واختلط ؟

وإن افترضنا أن بعثاً ينتظر الموتى ..

فما حال رجلٍ غرق فى البحر وأكله السمك .. ثم أكل رجلٌ آخر هذا السمك.. فكيف يعيدهم ربك وقد دخـــل هذا فى تكوين هذا ؟

– أما مسألة البعث فهى سهلة يسيرة على مـــن خلـــق ابتداءً؛ فمعلومٌ أن إعادة العمل أسهل من إبداعه وابتدائه .. ومن قدر على الإنشاء والبناء والابتداء يقدر على البعـــث والإعادة ..

وقضية تفرُّق التراب فى الأرض فمردودة .. فلو أنـــك نثرت مسحوق ذهبٍ فى ترابٍ كثير ثم قرَّبت إليه الزئبـــق لتجمَّع إليه الذهب .. وكذلك برادة الحديـــد بالمغنـــاطيس

تجتمع رغم تبددها فى التراب .. فكيف بالقدرة الإلهية التى تخلق من لا شىء ..

تلك القدرة التى قلبت عصا موسى حيةً تسعى، وأخرجت من الصخر ناقة صالح، وأحيت قتيلاً ببعض البقرة، وأظهرت حقيقة البعث على يد المسيح ..

أتعجز تلك القدرة اللامحدودة عن إعادة الحياة فيمن خلقت قبلاً على غير مثال ..

ألا يستطيع من نفخ الروح أولاً أن يرده ثانياً ..

التقط الكلمة من فمى سريعاً وألقى بها فى وجهى ثانيةً:

- الروح ؟ وما الروح ؟

وكيف يمكن جمع الروح وقد تفرقت مع صاحبها فى الأرض ؟

- إن الروح سر من أسرار الله الذى لم يكشف عنه لعباده، ولو كشف عنه لما مات أحدٌ ولاستطعنا حفظ الأرواح ومنعها من مفارقة الأجساد ..

الروح أصلاً وحدة واحدة لا تتجزأ ولا تتفرق .. قد تتفرق المادة .. يتبخر الماء من الطين فيعود تراباً ويتفرق فى الأرض، لكن الله يقدر على جمعه دون عناءٍ ..

أما الروح فهى لا تتفرق بتفرق صاحبها .. والدليل أننا نهذِّب أظفارنا ونقص أشعارنا ونفقد من دمنا ولا تنقص روحنا .. وبعض الناس يصابون بأمراضٍ تضطرهم لبتر بعض أعضائهم .. فهل تنقص بذلك أرواحهم ؟

ومن يتبرع لشخصٍ آخر بكليته مثلاً.. فهل ترى روح ذلك المتبرِّع تنقص ويذهب ما نقص منها إلى شخص المتبرَّع له ؟

وملاك الأمر فى قضية البعث سواءً للأجساد أو الأروح.. هو أن قدرة الله لا يعجزها شىء ولا يقف أمامها حد .. تلك القدرة يكفيها أن تقول للشىء كن فيكون ..

ضحك ضحكةً عالية ونظر إلىَّ باستخفافٍ وازدراء واضحين:

- كن فيكون !

هذا دليلٌ آخر على حمقكم ..

إن ربكم يستغفلكم بمثل هذه الكلمات المطَّاطة عديمة المعنى ..

فكيف يكلم غير الكائن ويأمره أن يكون .. ومخاطبة المعدوم محال ..

وإن كان كائناً .. فما معنى أمره له ؟

- هذا ليس أمراً أو خطاباً .. فالخطاب للمعدوم محال، وكذلك الأمر للموجود بأن يوجد وللكائن بأن يكون هو أيضاً محال ..

إنما المراد هنا التنبيه على تمام قدرة الله ونفاذ مشيئته فى إحداث المحدثات وتكوين الكائنات وإيجاد الموجودات بما لا يقدر عليه إلا الله ..

كن فيكون .. هى إشارة إلى قدرة الله المطلقة التى يقابلها عجز المخلوقين المطلق إلا بما شاء الله لهم ..

– وإن كان الله صاحب هذه القدرة المطلقة بحيث يكون ما يريده بمجرد أن يريده .. فلماذا لا يقول لعباده الفقـــراء كونوا أغنياء ؟

ولماذا لا يقول لأنصاره المستضعفين فى الأرض كونـــوا أقوياء ؟

لماذا لا ينشر دينه فى الأرض بكلمة "كن" ؟

ولماذا احتاج إلى ستة أيام ليخلق الكـــون .. ألم يكـــن الأفضل أن يقول له تلك الكلمة السحرية "كن" ؟

– أولاً الله لا يحتاج .. وكان يقدر على خلق الكون فى طرفة عين، لكنه خلقه فى ستة أيامٍ تعليماً للتـــأنى .. وربمـــا كانت له حكمة أخرى لا يعلمها إلا هو ..

وربما قال الله لها "كن" فبدأت تأخذ مجراها فى التكـــوين خلال الأيام الستة .. تماماً كالجنين .. يقول الله له كـــن، ثم يستغرق تكوينه تسعة شهور .. وهذا لـــيس معنـــاه أن الله استغرق تسعة شهورٍ فى خلق الجنين .. إنما قال له كـــن ثم

ترك الأمر يأخذ مراحل تفاعلاته .. إذن فخلق الله السموات والأرض فى ستة أيام لا يعنى أن الستة أيام كلها كانت مشغولة بالخلق .. بل قال الله "كن" وبعد ذلك ترك مكونات السموات والأرض لتأخذ قدرها ومراحلها؛ لأن ميلادها سيكون بعد ستة أيام ..

أما قدرته على إغناء الفقراء من عباده ونصر المستضعفين منهم فهى حاصلة بالفعل لمن جدَّ وكدَّ سعى واجتهد .. أما غير ذلك بأن يغنيهم بلا جهدٍ وينصرهم بلا جهادٍ فلا يصح ولا يجوز .. وهو مخالفة صريحة للسنن التى وضعها الله فى أرضه لمخلوقاته؛ فهو يعطى كلَّ عاملٍ بقدر عمله ..

أما بخصوص الدين فلو شاء الله لآمن من فى الأرض جميعاً .. لكن الله يريد من عباده اللجوء إليه اختياراً لا إجباراً .. لذلك منحهم الحرية فى اختيار ما يريدون .. يريدهم أن يعلنوا طواعيةً أنه المستحق للعبادة والمتفرد بها دون غيره ..

– وإن كان هو المستحق للعبادة دون غيره .. والمتفـــرِّد بها عمَّن سواه .. فلماذا أمرنى بالسجود لغيره ؟

يعاقب من سجد لغيره بالخلود فى النار .. ثم يعاقبنى أنـــا لأنى رفضت السجود لغيره !!

– يا مدلِّس .. إن الله لم يأمرك أن تعبد آدم .. وأنت لم ترفض أمر الله غيرةً على دينك ..

أمرك الله بأداء التحية لآدم ليس أكثـــر .. فمـــا كـــان السجود لآدم إلا كسجود يعقوب وبنيه ليوسف .. تمامـــاً كما يقدِّم العامة التحية للملوك ..

وأنت ما رفضت ذلك إلا علوًّا واستكباراً من نفسك .. فكيف بمن هو فى مثل مقامك الرفيع أن يسجد لمثل آدم وهو فى مقامه الوضيع .. هذا ما كان فى نفسك وقت رفـــضت السجود ..

بينما خرَّت الملائكة ساجدةً لآدم .. تقدِّم التحية له .. لا إكباراً لذاته وإنما إكباراً لذات الله وتنفيذاً لأمره ..

نظر إلىَّ نظرةً تتوقد من نار الغضب المنبعث من عينيه الحمراوين وقال فى انفعالٍ شديد :

– الملائكة .. الملائكة .. تتحدث عنهم وكأنهم لا يخطئون ..

ألم يراجعوا الله فى خلق آدم ؟

ألم يستنكروا عليه أن يجعل فى الأرض خليفة غيرهم ؟

إن ما فعلته أنا أقل مما فعلوا ؟

– كنت أظنك تغار من آدم ونسله فقط ..

بالتأكيد الملائكة لا تخطئ؛ لأن الله لم يعطها حق الاختيار، إنما خلقها لتنفِّذ فقط ..

وليس ما فعلت دون ما فعلوا .. فأنت خالفت الأمر .. إنما هم ناقشوه، فلما صار فى الأمر تكليفاً أذعنوا ..

إنهم لم يراجعوا الله فى خلق آدم ولم يستنكروا عليه كما تدَّعى .. لكنهم أبدوا تعجبهم واستغرابهم .. ليس أكثر .. لأنهم علموا أن الإنسان سيفسد فى الأرض ..

وربما كان سؤالهم اطمئناناً على أنفسهم وخوفاً على حالهم وحرصاً على علاقتهم بالله .. إذ ظنوا أنهم مقصِّرين فى حق الله الذى يريد أن يخلق مخلوقات غيرهم، فسألوه مستفهمين مستفسرين: لماذا تخلق آدم ونحن نسبح بحمدك ونقدِّس لك .. فكأنهم أرادوا أن يسألوا .. وهل قصَّرنا فى واجباتنا لتخلق غيرنا ؟

ولما أخبرهم الله أنه يعلم ما لا يعلمون أقروا له بذلك و لم يخالفوا أيًّا من أوامره ..

– ومادام الله يعلم ما لا يعلمون .. فمن أين لهم بأن الإنسان سيفسد فى الأرض ويسفك فيها الدماء ؟

– ربما عرفوه بإخبارٍ من الله .. أو من جهة اللوح .. أو ثبت فى علمهم أن الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون، وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم ..

أو قاسوا أحد الثقلين على الآخر حيث سكن الجن الأرض فأفسدوا فيها قبل سكنى الملائكة ..

– كيف ومتى سكن الجن الأرض وأفسدوا فيهـــا قبـــل خلق الإنسان ؟

ألم يخلق الله الكون فى ستة أيامٍ فقط ؟

أليس الفاصل الزمنى بين خلق الأرض والسماء والإنسان أيام ؟

ألم تخلق الأرض يومى الأحد والإثنين والإنسان خلق يوم الجمعة ؟

– ليست كل الأيام أربعاً و عشرين ساعة؛ فالقرآن يجعل اليوم تارة ألف سنة و تارة خمسين ألف سنة ..

إذن ستة أيام قد تعنى آلاف السنين أو ملاييين السنين و بهذا لا يكون المخلوق فى آخر الأيام الست كـــالمخلوق فى أولها ..

قال محوِّلاً زمام الحديث مبدلاً تعبيرات وجهـــه ونـــبرة صوته ونغمة كلامه :

– ما لقيت مثلك .. ما أعرفك بمداخلى ومخارجى !!

مادمت قد بلغت كل هذا العلم فأرح جوارحك من كلف التكاليف .. فإن وقعت فى زلّة فالعلم يدفع عنك العقوبة ..

ففضل العالم عند الله كبير ومنزلته عظيمة .. إنه أفضل من العابد كفضل الشمس على سائر الكواكب ..

– معرفتى بك ليست من نفسى ولا من ذاتى إنما هى من عند الله .. وهذا يستحق شكراً متواصلاً قولاً وعملاً ..

ثم إن حيلك كثيرة ومتجددة وكثرة الطاعات تديمنى فى معية الله الذى يدفع عنى .. فأنا لا أدفع عن نفسى ..

تماماً كمن نبحه كلب .. فاجتهد فى إبعاده فإنه يبعد ويعود .. إما إن استعان بصاحب الكلب كفاه .. وأنا لا أقدر على دفعك وحدى .. إنما أستعين بخالقى وخالقك ..

أما الاكتفاء بالعلم عن العمل فهو هراء كسائر كلامك.. فإنما فَضُلَ العلماء بعملهم وليس بالعلم وحده .. فالعلم حجة على صاحبه وليس حجةً له .. ولولا عملهم ما

كان لعلمهم معنى .. وإن لم أعمل بالعلم كنت كمن جمع الناس إلى طعامٍ أعدَّه و لم يأكل منه .. فهل يشبع إن شبعوا هم .. وهل يذهب بخواء بطنه امتلاء بطونهم هم من طعامه، ثم إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالمٌ لم ينفعه الله بعلمه .. لأنه صار مثل الحمار .. يحمل أسفاراً ولا يعى منها شيئاً ..

ثم لماذا لا توفِّر نصائحك لنفسك .. فأنت بها أحق ولها أحوج ..

بدت الدهشة على وجهه ممزوجة بالغضب والاستنكار وهو يقول :

- إلام تلمِّح ؟!

عقدت كفيَّ خلف رأسى ووضعت إحدى ساقيَّ على الأخرى وقلت فى هدوء :

- أنت تفهم مقصدى جيداً ..

انفجر من الغضب وراح يقول فى طريقةٍ هيستيرية:

- كلكم تخطئون .. كلكم تعصون ..

لماذا أنا بالتحديد من تصيبه اللعنة ؟

لماذا أنا فقط من بين كل المخلوقات من يُحكم عليه بالطرد من الرحمة إلى الأبد ؟

لقد كنت من الجن الصالح .. أيكون جزاء الصالحين اللعنة والطرد من الرحمة ؟!

وأين خطئى بالأساس ..

أنا لم أخطئ حين لم أسجد .. الأمر لم يكن لى .. الأمر كان للملائكة، وأنا لست ملاكاً .. فلماذا أُعاقب .. لماذا ؟

– أنت لم تكن صالحاً يوماً، إنما كنت طامعاً فى مكانة أعلى .. أنت عبد نفسك .. لا ترى غير ذاتك .. أحببت الرياسة والزعامة على الجن، فلمَّا علمت أن عبادة الله تحقق لك ذلك اجتهدت فى عبادته .. ليس طاعةً له ولا حبًّا فيه، إنما طلباً لهدفك وتقرُّباً من مرغوبك، فلمَّا أمرك الله بما ينقض ذلك الكبرياء ويحطِّم تلك الزعامة المزعومة أبيت وعصيت الله ..

ولا تدَّعِ أن الأمر بالسجود لم يكن لك وكان لغيرك .. فإنك لما أحسنت أحسن الله إليك وأعلى مكانتك وقرَّبك منه وجعلك فى مجلس الملائكة .. فلما كان الأمر لمجلس الملائكة بالسجود كنت مأموراً معهم .. لكنك لم تكن طائعاً مثلهم ..

ثم لم تستغفر الله على خطئك .. إنما أتبعت الخطأ بخطيئة .. استكبرت وأصررت وطلبت الأبدية وأنت تتهدد وتتوعد آدم وبنيه بالغواية والضلال؛ لتثبت أنك أفضل منه كما ادَّعيت وقت رفضت السجود .. ولو استغفرت الله وتبت إليه لوجدته غفاراً تواباً .. لكنك آثرت العناد والاستكبار واخترت لنفسك اللعنة والعذاب المؤبد والطرد من الرحمة ..

نحن نصيب ونخطئ .. نطيع ونعصى .. لكننا فى المقابل لا نستكبر .. بل نستغفر .. نتوب إلى الله ونتجرد من ذنوبنا فيغفر لنا ويتقبلنا إن رأى منَّا إخلاصاً ..

وحتى إن زللنا مرة أخرى .. نتوب مرة أخرى، فيغفر الله لنا مرة أخرى .. ولا يحرمنا فضله ولا يطردنا من رحمته مادمنا نرجع إليه تائبين رافعى أَكُفَّ الضراعة والندم ..

أما من عاند وأصرَّ على ذنبه وتابعك فى استكبارك سيتبعك فى مصيرك ومآلك .. فكل من كان فى قلبه ذرة من كبر إلى نفس المصير الواحد المحتوم .. إلى النار ..

أطلق عدة ضحكات عاليةٍ، ثم قال ساخراً بعدما فرغ من ضحكه:

- النار !!

وهل تحسب أن فى النار عذابٌ لى ؟!

هل تخال أنها ستؤذينى مثقال ذرة ؟!

النار تصلح لتخويفكم أنتم .. هى فزَّاعةٌ لكم .. من يخالف سيدخل النار .. فترتعبون وترتعدون .. أما أنا فلا ..

من النار أَصْلِى .. إنها بيئتى وطبيعتى ووطنى الأم .. فأىُّ عذابٍ يصيبنى من رجوعى للمادة التى منها خُلقت ؟

– هل تخدعنى أم تخدع نفسك هذه المرة يا صاحب الكيد الضعيف ..

ألا تذكر ما قلته لى أول ما التقينا .. "يظنون أنى مادمت مخلوقاً من النار فأنا شعلة .. لهب يمشى على قدمين، وينسون أنهم مخلوقون من طين، فهل إذا غرست فى أجسادهم بذرة ستنبت " ..

أوليس هذا كلامك ..

ليس معنى أن الله قد خلقك من نارٍ أنك شعلة تمشى على الأرض، تماماً مثلنا ..خلقنا الله من طينٍ لكن صورنا الآن ليست مجرد اجتماع ترابٍ وماء ..

ثم انظر إلى تلك المخلوقات الطينية إذا سقطت فى بركة طين .. فما يكون حالها .. تتعذَّب فيها حتى تغرق .. وهو أصلها وبيئتها وطبيعتها ووطنها الأم ..

وإذا يبس هذا الطين وصار حجراً وضربت به المخلوقات الطينية فستجد لذلك ألماً عظيماً ..

وحتى إن افترضنا أن النار لن تؤذيك .. فلا تنسَ أن الله قادرٌ على تغيير طبيعتك وخواصك أو طبيعة النار وخواصها بحيث تؤذيك أذىً عظيماً يتناسب وما اقترفت من أخطاء وخطايا ..

وفوق كل هذا فإن قوانين الآخرة تختلف اختلافاً كلياً عن قوانين الدنيا ..

ثم إنك أغفلت أهم ما فى العذاب .. العذاب المعنوى .. يوم يجردك الله من كبرك وتعاليك فيذلك ويرغم أنفك ..

يوم يراك أتباعك ومريدوك وأنت ذليلاً لا تقوى على دفع العذاب عنهم ولا عن نفسك ..

يوم ينتزع الله منك كل قواك وقدراتك باستثناء قوة الشعور والإدراك والقدرة على الإحساس بالألم المادى المتولِّد عن النار .. والألم المعنوى المتولِّد عن الذل والخزى والهوان إذ ترى غريمك آدم وبنيه وهم يسكنون أعلى الدرجات بينما تتقلب أنت فى أحقر الدركات ..

كان يحاول كظم غيظه وكبت غضبه حينما قال والكلمات تخرج من بين أسنانه :

– أراك تتعمد إثارتى .. لكنك لن تستطيع الصمود كثيراً أمام حيلى ومكائدى العظيمة ..

– معى ما يعصمنى ..

ضحك ضحكةً مقتضبة ونظر إلىَّ بنصفِ عينٍ وقال بشفةٍ ممطوطة :

– وما الذى تظن أنه يعصمك منى ..

قلت فى سرعة وكأننى كنت أنتظر سؤاله :

– الله ..

ارتجف رجفةً ارتعدت منها أوصاله وكأنه لم يكن ينتظر الرد أو يتوقعه :

– لكن ..

– آسف .. علىَّ إنهاء المقابلة حالاً ..

نظرت إلى عينيه الزائغتين مباشرةً وقلت بنبرةٍ تحدٍّ :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ..

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ [1]

وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ [2]

وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ [3]

بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ..

كان يتصاغر أمامى وهو يتلوَّى من الألم وكأنَّ سيوفاً تقطع جسده، وما لبث أن نشبت نارٌ فى كامل جسمه وهو يصرخ متألماً ولا يقدر على دفع النار عن نفسه ..

تذكرت حينها وأنا أنظر إليه استنكاره أن تكون النار عذاباً له ..

---

[1] - فصّلت 36 .
[2] - المؤمنون 97 .
[3] - المؤمنون 98 .

لثوانٍ معدودة كانت النار تأكل جسده .. ثم ما لبث أن اختفى عن ناظرى و لم يترك أثراً خلفه وكأنه لم يكن ..

وفجأة .. وفى اللحظة ذاتها .. انفتح الباب عن مساعدى العجوز بهيئته الرتيبة المعتادة فى ثيابه الرثة التى لا يبدِّلها أبداً وعدساته الطبية التى لا تفارق عينيه والأوراق والملفات التى لا تبارح إبطه ..

وبمجرد أن دخل تقطَّب جبينه والتقى حاجباه تلقائياً وقال فى اشمئزازٍ :

– ما هذه الرائحة الغريبة يا أستاذ ؟

هل هذه الرائحة هنا ؟

قلت مؤنباً :

– حمداً لله على سلامتك ..

أين كنت طوال اليوم ؟

مطَّ شفتيه ورفع حاجبه الأيسر وهز رأسه مستنكراً سؤالى :

– يا فتاح يا عليم .. ألم تطلب منى أن أذهب إلى المحكمة وأحضر تلك الملفات ..

ابتسمت له وداعبته قائلاً :

– رفقاً بى أيها الرجل العجوز فقد صارت ذاكرتى ضعيفة ..

وضع الأوراق على مكتبى وراح يتشمم تلك الرائحة التى لازالت تزعجه ..

– إنها رائحة شيءٍ محترق .. شيءٍ عَفِن .. تبدو كما لو كانت رائحة قمامة محترقة ..

جلست على كرسىَّ وقد علت وجهى ابتسامة لم أدرِ مغزاها ..

– صدقت .. إنها كذلك فعلاً !!